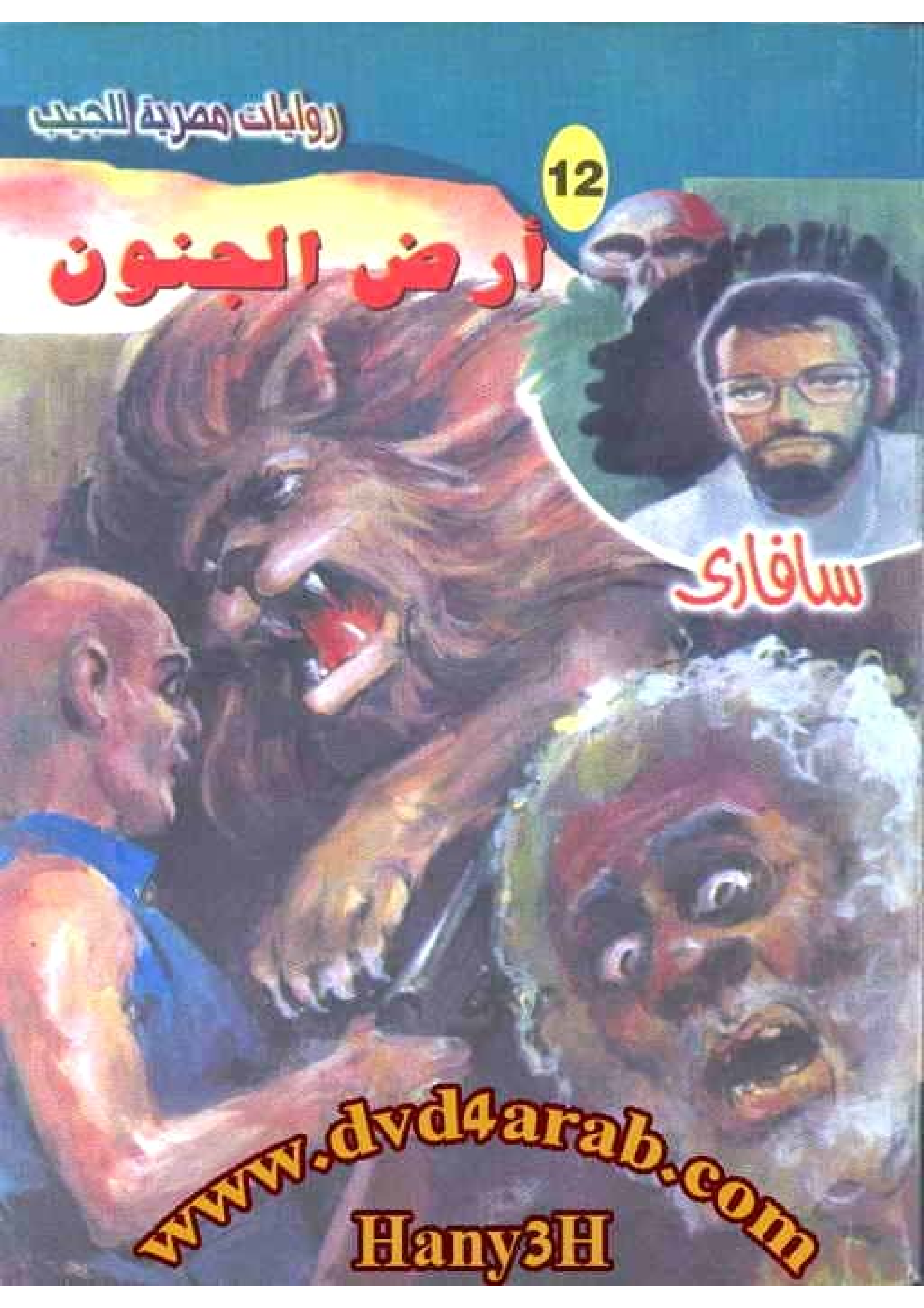

روايات مصرية للجيب
12
أرض الجنون
سافاري
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقــــدمة

(سـافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمــة (سافريّة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عـن رحـلات صـيد الوحوش فى أدغـال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سـافارى) التـى سنقابلها ها هنا كـانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنـا الـذى سنقابله دومًـا ، ونألفـه ، ونتعلـم أن نحبه هـو د. (عـلاء عبد العظيم) .. شـاب مصـرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاتـه بعيدًا وسـط أدغـال (الكـاميرون) ، وفـى بيئـة غريبـة وأمـراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفـى هذه الروايـات نقرأ مذكرات د. (عــلاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضـارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لايمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون)..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

فلنتذكر ما حدث ..!

يمكن القول دون خطأ كبير إن الكتيب السابق لهذا يحوى سلسلة لا تنتهى من الأحداث المتشابهة : فلان يجازف فى حماقة .. فلان يواجه هجومًا مريعًا غير متوقع .. علامات الاستفهام تتكاثر .. وهكذا ..

القصة كما عرفها من قرءوا الكتيب السابق : هى انفلات غير مسبوق فى سلوك الوحوش .. كلها لم تعد بالتهذيب السابق ، والاحترام القديم لتلك المعاهدة غير المكتوبة مع الإنسان ..

فى البدء كانت هجمات الفئران على القرى ، ثم جاء دور الضباع ، ثم بدأت الأسود تكسر عاداتها المتحفظة الخجول ، وتبدى ميلاً غريبًا لاقتحام مبنى (سافارى) .

بعد هذا جاء دور النسور التى تنقض من السماء لتقتلع العيون ، والوطاويط التى لا تتورع عن عض شفتك السفلى دون مبرر واضح ، والثعابين التى

اتخذت من قبو (سافارى) مسكنًا دائمًا .. لن أتحدث هنا طبعًا عن العقارب التى تبيت فى براد الشاى ..

ويدبّ الذعر فى وحدة (سافارى) ، ويطلب المدير استدعاء صياد شديد المراس من أصل روسى هو الرفيق (ماكسيم إيزاروفيتش منكوف) الذى يمكن لضعاف الذاكرة أن يسموه (ميشكا) ..

إن (ميشكا) شديد المراس حقًا ، يتسلى بلعبة الموت والحياة باعتبارها تمنحه أقصى درجات الإثارة فى عالم ممل بطبعه ، وميله إلى الصيد يعكس رغبة سادية لاشك فيها ، بالإضافة إلى نزعة انتحارية لا يتبينها غير طبيب نفسى ..

الحصار يستحكم حول (سافارى) ، وكما يحدث فى الكوابيس تنقطع خطوط الهاتف ، ويستحيل الاتصال اللاسلكى نوعًا من الضوضاء الإستاتيكية ..

يقررون إرسال طائرة هليوكوبتر كى تجلب نجدة من (أداماوا) ، لكنها تصطدم بأسراب الغربان فتحترق ، وعليها طيارها الألمانى البارع (يورجين) ..

هكذا لا يبقى من أمل سوى إرسال حملة برية

جرينة محاولة عبور هذا الكابوس ، والوصول إلى (أداماوا) ..

إن الشاب المصرى المشاكس (علاء عبد العظيم) واحد من أفراد الحملة كما هى العادة .. هذا طبيعى ، وإلا فلماذا صار بطل السلسلة أصلاً ؟!

يحاول الاعتراض والفرار ، لكنهم يرغمونه على ذلك إرغامًا ، ويرحل إلى مصيره كأبطال المآسى الإغريقية ..

التفسيرات ؟ لم تتضح بعد .. لكن الصياد الروسى الأريب واثق تمامًا من أن ثورة بركان (ماونت كميرون) هى السبب ..

وفى الطريق الرهيب الشبيه برحلات البحث الأسطورية ، ندرك أن الجنون لم يعم الوحوش فحسب ، بل امتدّ إلى البشر .. وهاهو ذا مشهد يرينا كيف أن رجلين وامرأة قد مزقوا بعضهم حتى الموت دون سبب محترم ..

تتعرض القافلة إلى هجوم من فيل متحمس ، تكون حصيلته فقدان السيارة ، وجراح عديدة بين الأفراد ..

ويتركنا الكتيب السابق فى موقف مستحيل بعض الشىء : لا سيارة .. الليل دان .. نصف أفراد الحملة لا يصلحون ..

والأدهى هو علامات غريبة تظهر على أقوى أفراد الحملة وأكفأهم ، الا وهو الصياد الروسى ..

ترى هل أصابه الجنون بدوره ؟

* * *

١ ـ (موكنبو) العجوز ..

يتحرك وسط الأكواخ الخاوية ، ملوحًا بعصاه ..

شعره الخشن قد اصطبغ بلون أصفر كريه ، وثمة نظرة مجنونة مذعورة فى عينيه لا يعادلها فى البشاعة إلا فمه .. فمه الذى تدلت شفته السفلى كاشفة عن تجويفين بين أسنان نخرة ..

يتحرك وسط الأكواخ ، بعباءته المصنوعة من جلد فهد .. كأنما هو نفسه فهد عجوز يتحين فرصة ما ..

يمشى وسط الجثث المتناثرة والدماء .. قدماه العاريتان النحيلتان تصطبغان بالدماء الجافة ، فلا يبالى ..

لقد جاء الهول .. وعم الهول .. ثم رحل ..

وبقى هو .. (موكنبو) العجوز .. فلم يستطع الموت أن ينال منه ، لأنه الأثير لدى الأرواح ..

ولكن هناك قادمون .. يسمع صوتهم بجلاء تام وسط السكون ..

ترى من هم ؟ ماذا يريدون ؟

★ ★ ★

دخلنا القرية المهجورة نجرجر أقدامنا ، ونلعق جراحنا ..

الروسى وأنا و (بودرجا) و (أندرسن) والسائق الكاميرونى .. وكان الظلام قد حلّ تمامًا ، لكن القمر الإفريقى البكر كان يغمر المكانَ بضوء فضى بارد ..

قمر بكر ما زال بعافيته الكاملة لم يستنفد بطارياته بعد .. لكن غيومًا حزينة كانت تعبر أمامه من حين لآخر ، وحوله تلك الهالة الشاحبة المنذرة بعاصفة ..

على الضوء الفضى كنا نرى الأكواخ الصامتة ، وبينها أشياء أخرى قدرنا أنها جثث .. لقد صارت الجثث مألوفة أكثر من اللازم هذه الأيام ..

اتجه (ميشكا) إلى إحدى الجثث ، وانحنى يتفحصها فى خبرة ، ثم نهض وقال وهو يتحسس بندقيته :

ـ « أسود على الأرجح .. »

ارتجفت ذعرًا .. لا أحب أن أرى عشرة أسود تخرج إلينا من الظلام الآن ، ونحن فى العراء وفى هذه الحالة ..

قال (ميشكا) كأنما سمع أفكارى :

ـ « الجثث باردة .. لقد حدث هذا منذ ساعات .. »

ثم نظر إلى (أندرسن) الذى لم يكف عن القىء منذ حدث هجوم الفيل علينا ، كأنما هو واجب قومى ، وقال :

ـ « يمكننا البقاء ليلتنا هنا .. إن الدانمركى لن يتحمل أكثر .. »

ـ « السويدى .. إنه سويدى .. »

ـ « لا فارق عندى .. كلهم يتشابهون .. والآن يمكننا البحث عن كوخ مناسب .. »

نظرت حولى فى رعب .. لا أحب على الإطلاق المبيت فى قرية صار كل أهلها جثثًا ممزقة ، وكان (بودرجا) يرى الشىء ذاته :

ـ « (داوا) ! هذه القرية مليئة بالـ (داوا) ! الأرواح لن تتركنا لحظة ! »

قال الروسى بلهجة لا تقبل النقاش :

ـ « إن فرصتنا هنا لا بأس بها .. لكن نهايتنا تنتظرنا هناك فى العراء ووسط الغابة المظلمة .. لقد خرج

كل وحش فى البلاد كى يظفر بنا ، ولن نسهل له الفرصة .. »

ولم أجادل أكثر لأن العقل يفرض نفسه فى النهاية دومًا .. العقل الذى حسبت للحظة أنه تخلى عن صديقنا الروسى ، وقلت لنفسى : إلى أن يجن تمامًا سيكون ذا عون كبير لنا .. إن قوته الجسدية والنفسية وخبرته بالأدغال هى ملاذنا الوحيد الآن ..

وبحثنا وسط الأكواخ حتى وجدنا كوخًا خاليًا .. كان هناك موقد بدائى ، وإناء صدئ به سائل ما ..

رفعت رأسى لأعلى ، وتأملت السقف المغطى بالقش .. إن هذا أوهى حصن ممكن لو كان لى أن أقول هذا ..

قال الصياد الروسى وقد سمع أفكارى للمرة الثانية :

ـ « ليس لدينا ترف الاختيار .. لكننا على الأقل نواجه حيوانات عجماء لا فريقًا من رجال العمليات الخاصة .. فلنأمل أن هذه الوحوش أغبى مما نظن .. »

وأشعل قداحته ولامس بها قطع الخشب الجاف ، فراحت النار تتوهج فى حياء أولاً ، ثم بدأت تتحمس ..

وبيد ثابتة مدّ يده إلى (الجربندية) فأخرج بعض علب الطعام المحفوظ ، وبعض علب المياه الغازية ، وأمرنى بأن أفتحها ..

لم يكن لأى منها مفتاح ، فناولنى خنجره المشرشر رهيب المنظر ، ودعانى إلى استخدامه .. كانت مهمة عسيرة لكنى تجنبت إعلان هزيمتى كى لا أشعره بأننى شخص عاجز لا يمكن الاعتماد عليه ..

وبالخنجر وضعت لكل من الجالسين نصيبه من الطعام على ورقة من المناديل الورقية ، واختصصت نفسى بما بقى فى العلبة على سبيل الطبق ..

بفم ملىء بالطعام دنوت من (أندرسن) الذى كان راقدًا يرمق السقف وينز ، وحاولت أن أدسّ بعض الطعام فى فمة لكنه بصقه فى حزم ..

ارتجاج واضح تمامًا ، لكننى أحسبه سيشفى منه سريعًا .. إن حدقتيه تعملان جيدًا ، ولم يبدأ فى التشنج ، أو يواصل القىء ..

سألت الروسى وأنا أواصل التهام الطعام :

ـ « ما هى خطتنا لو طلع علينا النهار ؟ »

جرع جرعة من قارورة يحملها فى جيبه ، وقال :

ـ « لم يتغير شىء .. لقد دنونا من (أداماوا) جدًا ، ولو سارت الأمور جيدًا سنكون هناك عند الظهيرة .. »

ـ « وهل تصدق أننا سنجد هناك رجال الجيش حقًا ؟ »

ـ « لم أعد واثقًا من شىء .. لكننا لم نعد نملك الخيار .. لقد ابتعدنا عن (سافارى) كثيرًا جدًّا .. لم يعد من أمل سوى مزيد من التقدم للأمام .. »

ثم فرغ من طعامه فمدّ يده إلى بندقيته ، وعالج شيئًا فيها ، ثم سألنى بفم ملىء بالطعام :

ـ « هل تجيد استعمالها ؟ »

ـ « لا أجيده ، لكنى أعرف كيف أضغط الزناد وأصوّب .. »

ـ « جميل .. »

ونظر حوله إلى الكوخ الذى أضاءت النار أرجاءه ، وإلى الخارج المظلم ، ثم قال :

ـ « سننظم نـوبات حراسـة .. أنـا ثـم أنـت ثـم (بودرجا) ثم السائق ..

فى الغالب لن يجىء الخطر إلا من الباب ، وسيكون مجال التصويب محدودًا .. »

قال (بودرجا) مرتجفًا :

ـ « ألن نشعل نارًا بالخارج ؟ »

ـ « بلى .. إن النار مفيدة دائمًا .. »

وخرج مـع السائق يجمعـان الأخشـاب الجافـة ، ووضعاها فى كومة على بعد أمتار من مدخل الكـوخ ، ثم لامسها بقداحته ، وبدأت الزهرة البرتقالية تترعرع وتنمو ..

عـاد الروسـى إلـى الكوخ ، فوضـع البندقيـة علـى ركبتيـه ، وأراح ظهره إلـى الحـائط الطينـى ، وقـال بلهجة آمرة لهم ثم لى :

ـ « ناموا ! سأوقظك بعد ساعتين .. »

غمغمت شيئًا ما ، وأدرت ظهرى للنـار ، وحـاولت جاهدًا أن أقتـل الخـواطر المتصارعـة في ذهنى ، كما

تحاول أنت أن تقتل جيشًا من الصراصير بحذائك .. ضربة هنا وضربة هنا .. يجب أن أنام .. لا أحد يعلم ما سنراه غدًا ، ولا كيف سينتهى النهار ..

لكن الخواطر ظلت جامحة تتصارع ..

خواطر عن أخى .. أمى .. وحدة (سافارى) .. (برنادت) .. مصر .. الروسى .. الفيل يضرب سيارتنا ..

حتى لم أعد أذكر شيئًا ..

★ ★ ★

ورأيت فيما يرى النائمُ الروسىَّ يخنق كل الموجودين بالكوخ ، وعلى وجهه ضحكة شيطان لو كانت الشياطين تضحك ، وكما هى العادة فى الكوابيس كنت أنا ثقيل الحركة غبيًا بليدًا ، أكتفى بأن أنتظر دورى فى تراخ تام ..

فى النهاية وضع يده على ترقوتىَ عازمًا على البدء ، وصحوت فى اللحظة ذاتها على يده الغليظة تهزنى فى خشونة ..

ـ « استيقظ ! جاء دورك ! »

فتحت عينىَ بصعوبة .. وفهمت أن الرجل لم يخنق أحدًا بعد .. هذه من (أحلام المنبه) الشـهيرة ، حين يتم تلفيق حلم كامل من أجل لحظة الإيقاظ هذه .. أنت تبلل فراشك ليلاً ـ هذا مجرد مثال طبعًا ـ فترى حلمًا كاملاً تقود فيه طائرة تهوى إلى المحيط .. وحين تصحو من النوم تدرك أن شعور البلل حقيقى ، وأن كل الحلم تم تلفيقه لتبرير لحظة الاستيقاظ هذه ..

وبذهن ناعس مبلبل تركته يضع البندقية فى يدى ، ثم يدير ظهره العملاق إلى النار ويدخل فى سبات عميق ..

لو كان هنا بعض الشاى !

وجلست أرمق النار خاضعًا لتأثيرها المنوّم .. لم يُخلق بعد الإنسان الذى لا يشرد ذهنه حين يرمق النار أو البحر ..

ونظرت لساعتى .. إنها الثانية بعد منتصف الليل .. سأوقظ (بودرجا) فى الرابعة ، أو فى الثالثة لو نام ضميرى مبكرًا .. يمكننى أن أزعم له وقتها أنها الرابعة .. لن يلاحظ ..

النار .. النار .. النار ..

النار .. النار .. النار ..

★ ★ ★

فى فاى فو فام !

★ ★ ★

بعد ربع ساعة رأيت الظلّ يمرّ أمام الباب ..

كانت ناران تنعكسان عليه ، فأمكنني تمييزه بشىء من الوضوح .. كان محنى القامة نحيلاً جدًا ، له شعر ذهبى ثائر .. والغريب هنا أنه عبر فرجة الباب دون أن يجدّ السير أو يتباطأ .. كأنما لا وجود لنا أصلاً ..

وانقبضت أناملى بعنف على البندقية .. هذا وهم .. لابد أن هذا وهم ..

ثم تذكرت أننى لست من الطراز المغرم بالهلاوس البصرية .. لقد مرّ واحد أمام الباب لاشك فى هذا ..

هل أوقظ الآخرين ؟ العقل يقول أن أفعل ، لكن غريزة الانتحار المعروفة لدى علماء النفس تقول لى أن أتحرى الأمر بنفسى .. لست فتاة مراهقة مذعورة

تملأ الدنيا عويلاً لدى أول خطر ، والأدهى أن يتضح أنه ليس خطرًا ..

ونهضت نحو الباب .. رفعت فوهة البندقية لأعلى وصحت بالعربية بصوت حازم (مرتجف بعض الشىء) :

ـ « من هناك ؟ »

كما يفعل شاويش الدورية عندنا فى مصر أو كان يفعل .. وخرجت من الكوخ لأتأمل قرية الأشباح المظلمة النائمة فى ضوء القمر ، لا شىء سوى وهج اللهب يحرق جانب وجهى الأيمن ..

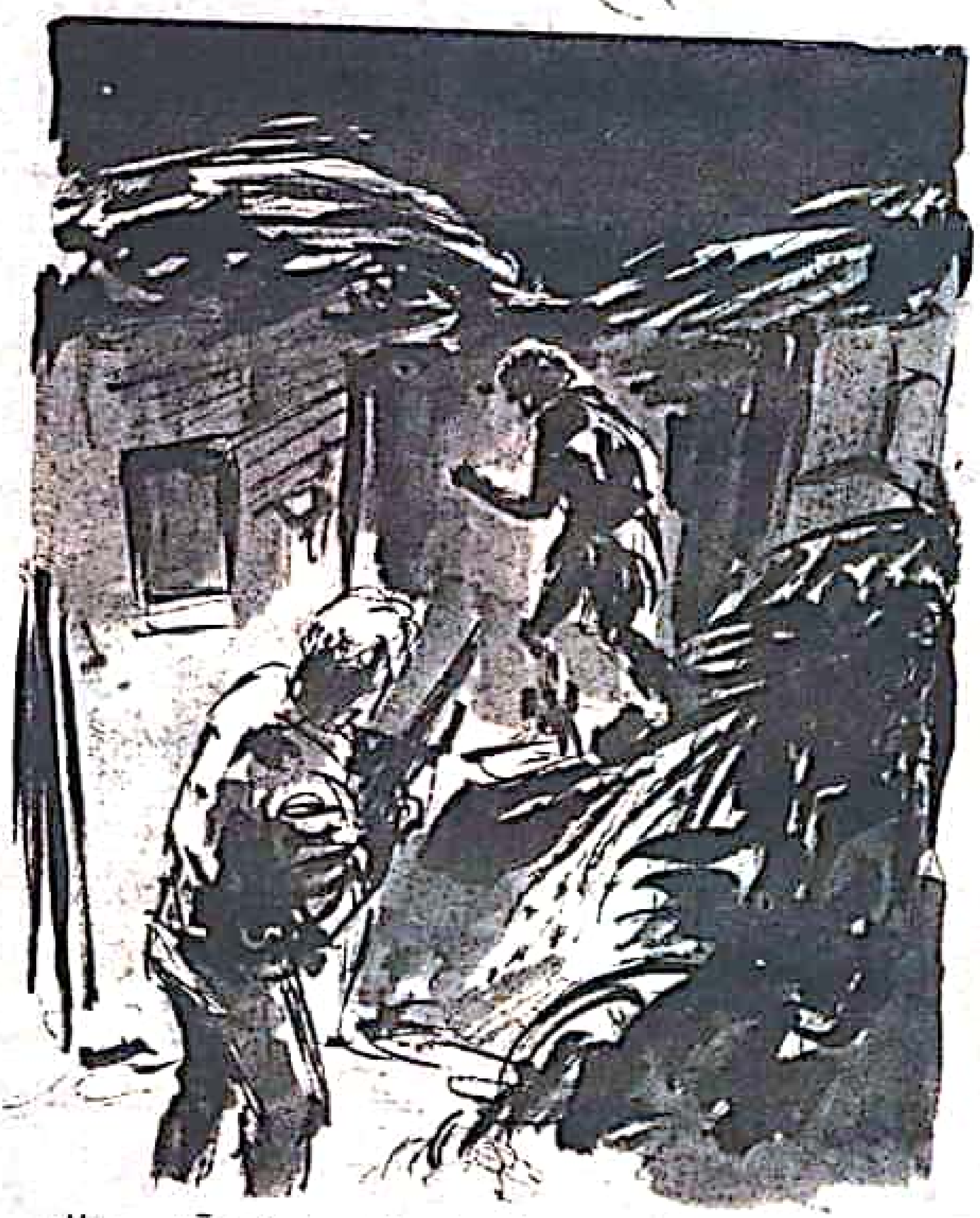
ثم رأيته يتحرك ..

كان يخرج من وراء كوخ طينى ليدخل وراء كوخ آخر ، بتلك الخطوات الغريبة المتمهلة غير العجول ..

كان لديه كل الوقت ، لكنى لست مثله ..

وثبت ألحق به .. لو لم أجد الشجاعة وأنا أحمل هذه البندقية الثقيلة فمتى أجدها ؟

وراء صف الأكواخ لم أجده .. هذا سهل فى هذا الظلام ..



كان يخرج من وراء كوخ طيني ليدخل وراء كوخ آخر ، بتلك
الخطوات الغريبة المتمهلة غير العجول ..

ثم أدركت أن لعب المساكة بهذه الطريقة حماقـة .. إن الكـوخ سـيعطينى مركـزًا أتحـرك منـــه وظهــرًا يحمينى ..

تراجعت إلى الكوخ ببطء وأنا لا أكف عن الـدوران حول نفسى .. وفى دقيقة كنت عند بابه ..

فقط لأجد الرجل واقفًا هناك ، وظهره لى ..

وكانت فى يده مدية هائلة ..

* * *

٢ ـ حصار جديد ..

لا أدرى كيف ولا متى صحا (بودرجا) من نومه ..

لكنى سمعت عويله الشبيه بعويل كلب صغير داست شاحنة على ساقه اليمنى .. راح يصرخ ويردد عبارات باللغة (البانتويد) أو (الفولانى) أو (السودانية) ، لا أدرى معناها لكن لها رائحة (عفريت ! عفريت ! تعالى لى يا أمى !) ..

كان بوسعى إطلاق النار على المهاجم من ظهره ، لكنى لم أجسر طبعًا .. لهذا أمسكت البندقية من طرفيها كعصا ، وهويت بها على عنقه من الخلف أستخدمها كمشنقة .. ورحت أضغط وأضغط بينما أحرك الجسد يمينًا ويسارًا لأرهقه ..

كان صراخ (بودرجا) قد أويقظ النائمين ، وكان الروسى هو أول من جاء يجرّ عضلاته ، وبحركة فنية ما انتزع المدية من المهاجم ، ثم أشار لى :

ـ « دعه ! »

ولما رآنى مترددًا ، صاح :

ـ « قلت : دعه ! إنه مذعور أكثر منك .. »

وفككت المشنقة عن عنق الرجل ، فهوى على الأرض يسعل ، ويقول كلمات كثيرة لا نفهمها ..

جلس (ميشكا) القرفصاء جوار الرجل ، وتأمل ثيابه وسحنته ، ثم قال :

ـ «ساحر .. إنه ساحر هذه القرية على ما أظن .. »

قدمنا للرجل بعض الماء ، فراح يجرعه دون حذر ، وحنجرته تتواثب فى عنقه النحيل كالـ (يويو) الذى يلعب به الصبية ..

هنا جاء دور (بودرجا) مترجمنا المعتمد ، الذى تغلب على ذعره أخيرًا ، وراح يفسر لنا كلمات الرجل :

ـ «يقول إن الأرواح غزت القرية ، وأصابت أهلها بالجنون .. فى البداية جاءت الضباع ، ثم الفئران ، ثم راح القوم يقتلون بعضهم ، لكن الأرواح استثنته لأنه الساحر (موكنبو) .. أحكم حكماء القبيلة ، وأقربهم إلى صداقة الأرواح .. »

قصة منطقية جدًا كما ترون ، وكان سيحكيها أى ساحر قبيلة يبقى حيًا بعد هلاك الجميع ، فإذا أضفنا لهذا جحوظ عينيه وهياجه الشديد ، لأمكننا القول إن لمسة من الجنون أصابته بدوره ..

أدخلنا الرجل البائس إلى موضع جوار النار ، وقدمت له بعض الطعام المتبقى من العشاء ، لكنه لم يبد جائعًا .. ألقى بالعلبة وراح يردد كلمات مجنونة ترجمها (بودرجا) :

ـ « الهول .. الهول .. الهول جاء ومضى .. ستموتون جميعًا وأنتم تصرخون ، بعد ما تمزقون بعضكم .. »

قلت لـ (بودرجا) فى ضيق :

ـ « يمكنك إغلاق قناة الترجمة قليلاً .. هذا الرجل لن يقول شيئًا جديدًا سوى نبوءات العرافين ، التى تتكرر دومًا بنفس الحروف تقريبًا .. ما دام لن يقدم لنا معلومة ما ، فمن الخير أن تخرس .. »

هنا تدخل الروسى فى الكلام ، وباهتمام قال :

ـ « مازلت أريد فهم ما حدث .. كيف بدأ الجنون ؟ »

تبادل (بودرجا) والرجل المرتجف بضع كلمات ، ثم قال لنا :

- « يقول إنه بدأ فى العيون أولاً .. راحت ترقص فى محاجرها ، ثم بدأ الصياح بصوت عال .. فالقتال بالأيدى .. ثم خرجت الأسلحة ، وجاءت الطيور الجارحة تحيط بالقرية .. »

- « يا للكارثة ! تبدو لى نهاية العالم ! »

قلتها فى نوع من النحيب ، فقال (ميشكا) :

- « لن نموت يا فتى .. لقد مررت بما هو أسوأ وازددت فى كل مرة قوة .. »

وبلهجة آمرة صاح فينا وفى (بودرجا) :

- « الآن ينام الجميع ما عدا (بودرجا) ! لقد بدأت نوبة حراسته ! »

وصدعنا بالأمر ، لكن الوافد الجديد إلى معسكرنا كان يضفى جواً ما من التوتر ، وكأنه أحد طيور الشؤم ..

وأصابنى الأرق بفعل الورطة المعهودة : انتظار مجىء النوم ..

حين تفرّ من يديك اللحظة السحرية التى يجىء فيها النوم دون أن تدعوه .. من ينتظر النوم لا يجده أبدًا ..

وفى الخامسة صباحًا ـ أعتقد أننى لم أكن قد نمت بعد ـ سمعت (بودرجا) يصيح .. ثم راح يهزنا جميعًا دون رفق ، حتى إنه وجه ركلة إلى خصر السائق ..

وفتحنا عيوننا لنجده يصرخ :

ـ « أسود ! »

انتزع (ميشكا) البندقية من يده ، وبحزم سأله :

ـ « أين ؟ »

ـ « مرّ أحدها أمام الباب حالاً ! »

تصلبنا جميعًا فى قلق ، وأرهفنا السمع ..

لا شىء ..

بل هناك شىء ..

بالحق نسمع الآن صوت الزئير الجشع قادمًا من الخارج ..

ـ « يجب أن نسدّ هذا الباب حالاً .. »

وبحثنا فى الكوخ حتى وجدنا حشيئة قديمة ممزقة يبدو أنها كانت فراشًا لساكنيه ، وتعاونا حتى ثبتناها على فتحة الباب .. ثم رحنا نضع قطع الطين الجاف وراءها .. كان هذا سدًا يثير الشفقة ، وتذكرت ما كان الألمان فى حصار (برلين) يقولونه عن المتاريس التى أقاموها لصدّ هجوم السوفييت : سيحتاج الروس إلى ثلاث ساعات لاختراق هذه المتاريس .. ساعتين ونصف للضحك ونصف ساعة للاختراق !

فلنأمل أن تموت الأسود ضحكًا حين ترى هذا السدّ الأبله ..

* * *

أشعل (ميشكا) سيجاره كريه الرائحة ، وقال وهو يتأمل المكان :

ـ « هذه الفتحة التى تسدّها ستارة من الحصير .. إنها نافذة سهلة الاختراق .. »

قلت له فى غيظ :

ـ « يمكنك طلب حدّاد يدعمها لك لو أردت .. »

قال وهو ينفث الدخان :

ـ « لن نعتمد عليها .. سنجعل منها مكانًا للمراقبة وإطلاق النار .. أقترح أن تتولى أمرها يا فتى مع (بودرجا) .. »

وانحنى إلى جربنديته ، فأخرج منها مسدسين طوّح لى و لـ (بودرجا) بهما .. كان ثقل السلاح مطمئنا مهيبًا فى قبضتى ..

ولم يدر (بودرجا) كيف يستعمل هذا الشىء ، فشرح له الصياد بسرعة كيفية إزالة حاجز الأمان والإطلاق .. إلخ ..

وبحركة درامية مزق الستار لتظهر لنا النافذة المنحوتة فى الطين ، ضيقة لحسن الحظ لا تسمح إلا بمرور طفل ..

ومن ورائها كان لون الفجر قد بدأ يغمر القرية فى سخاء ، كأنما فرشاة سحرية سخية لا تكف عن تلوين كل شىء .. هواء الفجر البارد النقى يملأ رئاتنا ..

واتجه (ميشكا) إلى الباب الذى ثبت عليه الحشية ، فصوب بندقيته نحوه وانتظر ..

قال سائقنا فى احتجاج :

ـ « وأنا ؟ لست مسلحًا .. »

ـ «للأسف لايوجد معى المزيد من السلاح يا بنىّ .. »
ثم مدّ يده إلى حزامه ، فانتزع الخنجر العملاق وطوّحه باتجاه السائق حتى كاد ينغرس فى صدره ، وقال :

ـ « لو حدث التحام سيكون دورك ! »

تأمل السائق الخنجر فى غباء إذ جلس جوار الساحر العجوز ، وكان هذا الأخير لايكف عن الكلام .. يبدو أنه يحكى قصة حياته منذ كان رحم أمه لا يكف عن الانقباض ، حتى وجد نفسه فى هذا الكوخ مع غرباء ..

ومن جديد ساد الصمت ..

★ ★ ★

لم يتكرر صوت الزئير ثانية ..

وعرفت أن لنا نصف ساعة ننتظر منذ سمعنا الزئير الأول ..

قلت فى أمل :

ـ «ربما اكتفت الأسود بالجثث الموجودة ورحلت .. »

قال (ميشكا) دون أن يبدل وقفته :

ـ « الأسود لا تأكل الجيف يا بنى .. الضباع والطيور الجارحة تفعل .. إنهم يبحثون عن شىء حىّ يؤكل هنا .. »

وهنا سمعت الزئير يتعالى رويدًا رويدًا ..

دنوت من النافذة وحبست أنفاسى ..

لحسن الحظ أن اقتحامها مستحيل لمن هو فى حجم أسد .. على الأقل يعطينى هذا حماية لا بأس بها ..

ولا أدرى كيف ولا متى وجدت تلك الذراع الهائلة تقتحم الفرجة على بعد سنتيمترات من وجهى ، وراحت تخمش هنا وهناك محاولة توسيع الفرجة ..

ثم توارت وظهر الرأس .. رأس لبوة ثائرة تحاول أن تدسّ جسدها بشكل ما عبر الثغرة .. وفمها ينفتح وينغلق محاولاً القبض على شىء .

بحق كان المشهد رهيبًا ـ كالكوابيس ـ حين ترى هذه القوة العاتية الكاسحة ، على بعد سنتيمترات منك ، وأصابنى ذلك التنويم المغناطيسى الذى يصيب كل من



ثم توارت وظهر الرأس .. رأس لبؤة ثائرة تحاول أن تدس
جسدها بشكل ما عبر الثغرة ..

تدنو عيناه من عيون عائلة (السنوريات) بدءًا بالقط وانتهاءً بالنمر ..

ـ « أطلق الرصاص يا أحمق ! »

ونجحت الصرخة فى إعادتى لصوابى ، فجردت المسدس وأدنيته ما بين العينين ثم ضغطت الزناد ..

* * *



٣ ـ تنويعات على نغمة الحصار!

يا لصخب الطلقة ويالقوتها !

فى هذا المكان المغلق بدا لى أن الطلقة أحدثت خللاً ما فى تركيب مخى ، وبالطبع أغلقت عينى ساعتها فلم أر ما حصل .. فقط حين فتحتهما لم تكن اللبؤة هناك ، وكان الدخان ذو رائحة البارود الحريفة يفعم المكان .. واستدرت إلى الروسى صائحًا :

ـ « ماذا حدث ؟ هل أصبتها ؟ هل ؟ »

صاح دون أن يبتعد عن الباب :

ـ « بالطبع لا .. تأخرت قليلاً .. ولكن لا تتحرك .. اثبت حيث أنت .. »

ـ « كـ .. كيف ؟ لقد كانت على بعد سنتيمترات منى و .. »

ـ « اثبت ! »

وهنا راحت الحشية على الباب تهتز ، وأدركنا أن

جسمًا ضخمًا يحاول إزاحتها بأنيابه ومخالبه ، وهو مجهود هين على كل حال ..

دون أن يفكر مرتين أطلق الروسى طلقة واحدة فى منتصف الحشية ، بعدها همد الصوت تمامًا ..

ونظرت من النافذة وأذناى تصفَران .. كأنما غشاء عنكبوت قد نسج بإحكام على طبلتيهما ..

رأيت ثلاثة أسود تقف هناك فى ضوء النهار الوليد ، وقد ثبتت عيونها على عينى فى ثبات .. وارتجف الفك السفلى لأحدها مصدرًا زئيرًا واهنًا ، كالذى تطلقه القطة حين ترى عصفورًا على حبل الغسيل ..

قلت لـ (بودرجا) وأنا أسند المسدس بيدى الأخرى :

ـ « أطلق ! بالله عليك ! »

ولكن الصياد الروسى صاح دون أن ينظر لنا :

ـ « لا تفعل ! »

ـ « ولكنهم أمامنا تمامًا .. »

ـ « من الخطأ أن تطلق النار على الأسد إذا لم تكن واثقًا من قتله . إن الأسد الجريح قادر على كل شيء حتى على هدم هذا الكوخ فوقنا .. اقتصد في طلقاتك من أجل الهجوم القريب فقط .. »

وفي اللحظة التالية سقطت الحشية ، وبرز لنا الجزء العلوي من أسد عجوز كثيف ، اللبدة متسخها ، وراح يحاول أن يمرّ من فوقها ، وهو يزأر في هياج غريب ..

أطلق الروسي بندقيته من جديد ، وهكذا تهاوى الأسد ، لكنه ـ في حماقة بالغة ـ هوى للأمام ليوسّع فرجة الباب ، فلو كان عنده شيء من اللياقة لمات ساقطًا للوراء ..

وهكذا صار الباب مفتوحًا كـ (روما) بعد سقوط الفاشية ، أو كقلب صديق مخلص .. وجاءت لبوة متحمسة تثب فوق جسد بعلها الميت تبغي الدخول ..

صاح (ميشكا) وهو يطلق النار :

ـ « ساعدوني هنا ! لو دخلت الأسود الكوخ لانتهى الأمر ! »

وتركنا النـافذة ـ هى على الأقل ضيقة ـ ورحت و (بودرجـا) نطلق دون وعـى علـى الوحـش الـذى جعلـه الارتفـاع أكثر ضخامـة .. رائحـة البـارود توتّـر الحواس ، وصوت الطلقات يصمّ الآذان ..

وفى النهاية تراجع الوحـش الجريـح ، فـى الغـالب ليموت جوار الباب .. واستدرت لأرى النافذة ..

كان أسدٌ شاب يحاول جاهدًا أن يدسّ رأسه فيها ..

صحت مذعورًا :

ـ « (ميشكا) ! كم تظن عددهم ؟ »

ـ « إن الهجوم الجماعى يقوم به ستة فى المعتاد .. لكن هـذه الأسود لا تعمل كما ينبغى .. ربما كان هنـاك عشرون منها ! »

ثم صاح وهو يحاول جرّ الأسد الميت على المدخل :

ـ « ساعدونى ! » لن نستطيع غلـق البـاب مـا لـم نبعد هذا .. »

وقف (بودرجا) شاهرًا مسدسه ، على حين تعاونت والسائق والروسى على جرّ الوحشِ العمـلاق الصريع إلى الداخل .. تبًا ! لابد أنه يزن طنًا على الأقل ..

والأسوأ هو أن الحياة لم تكن فارقته تمامًا .. كان يحرك فكيه ومخالبه ويحاول أن ينهض .. لن يقدر لكن لو استطاع !

بوم !

كانت هذه رصاصة الرحمة التى أطلقتها على رأسه .. رحمة به وبنا ..

وفى اللحظة ذاتها دوّت طلقة أخرى أطلقها (بودرجا) على أسد حاول أن يعبر الباب ..

صاح (ميشكا) وهو يضع الحشية مكانها :

ـ « هلموا ساعدونى على تثبيت هذه ! »

ورحنا نضع الحشية البائسة كيفما اتفق ، ونكوّم الطين الجاف وراءها .. من الواضح تمامًا أنها تعوق المقتحمين برغم هشاشتها .. على الأقل تمنحنا الوقت الكافى للانتباه ..

ساد الصمت وجلسنا نلهث ، دون أن نجرؤ على ترك الأسلحة ..

كانت جثة الأسد الجريح وسطنا بحضورها القوى ،

ورائحتها التى هى مزيج من رائحة الوحوش المعروفة ورائحة الموت ذاته ..

قال (ميشكا) :

ـ « أسد بارع الجمال .. لو كان لدينا وقت لجززنا رأسه .. »

قلت وأنا ألهث :

ـ « إن لديك معرضًا رائعًا بالخارج .. يخيل إلىّ أن أسود إفريقيا توشك على الانقراض بسببنا .. »

ـ « لا أعتقد أننا قتلنا العدد الذى تتخيله .. لا تنس أنك وصديقك الكاميرونى لا تجيدون التصويب .. لابد أن ثلاثة أسود هناك يلعقون جراحهم .. »

سأله (بودرجا) مرتجفًا كالعادة :

ـ « متى نخرج من هنا ؟ كيف نواصل رحلتنا ؟ »

قال (ميشكا) وهو يتفحص بندقيته ويعيد حشوها :

ـ « حاليًا لا أملك إجابة .. لكن الأسود سريعة الملل على كل حال ، وسرعان ما تقرر البحث عن مغامرة جديدة .. »

وتهلل وجهه فى سماحة وقال :

ـ « هلموا ! لن نظل هنا حتى نموت جوعًا وعطشًا وتنفد ذخيرتنا .. هذا يحدث فى عالم البشر فقط .. »

رحت أرقبه ، وحمدت الله تعالى على أن ظنى خاب ..

ما زال عقل هذا الرجل راجحًا ويعمل كما ينبغى ..

وارتجفت لفكرة أن نواجه كل هذا من غير خبراته ..

حقًا شعرت أن (ميشكا) هو حليف الموت ، ويعرف عنه كل شىء .. من العسير أن تموت لو كان معك صياد كهذا ..

ونظرت للوراء فوجدت (أندرسن) يصحو ويتحسس رأسه .. كان رأسه يتأرجح كما يتأرجح عنق دجاجة مذبوحة ، وراح يئن متألمًا ، لكن عينيه كانتا تتكلمان فى هذه المرة ..

قلت له باسمًا :

ـ « استيقظ وأشرق ! لقد نسينا أننا خمسة .. »

لم يردّ .. كانت عيناه مثبتتين على جثة الأسد

المضرجة بالدمـاء ، ولا أدرى إن كـان يقظًا أم غـافلاً حين بدأت المعركة ، لكنه بدا عليمًا بتفاصيل ما حدث .

وجواره كان الساحر الإفريقى يتلفت حوله فى فزع لم ينقطع لحظة .. لقد كانت هذه الضوضاء كافية كـى يطير عقله شعاعًا ، بفرض أنه لم يطر من البداية ..

كان نور الصباح قد غمر المكان قادمًا مـن النـافذة الوحيدة ، وللحظـة بدا لنا أن مـن حقنـا أن نـأمل فـى انتهاء الكابوس ..

وفتحت إحدى علب الطعام المحفوظ وقمت بتوزيـع الأنصبة ، ثم سألت (أندرسن) الصموت :

ـ « هل أنت بخير ؟ »

أشـار إلى رأسـه بسبابتـه إشـارة مفهومة تمامًا ، وبدأ يمضغ ..

كنـا قد بدأنـا نهدأ قليلاً حين تعـالى الزئـير مـرة واحدة ، فوثبنا فى أماكننا ، ونظرت إلـى النـافذة لأجد ذراعًا أخرى لأسد يحـاول كالعادة أن يفسـح لنفسـه ثغرة ..

صاح (ميشكا) وهو يقف ، ويمسك بندقيته :

ـ « إلى أماكنكم سريعًا ! »

ـ « إذن هم لم يرحلوا بعد ! »

وجريت حاملاً المسدس إلى موضعى جوار النافذة .. الإغراء شديد كى أفرغ طلقة فى هذه الذراع .. لكن هذا لن يفيد سوى مزيد من الاستفزاز ..

صرخ (أندرسن) فى هستيريا :

ـ « اقتله ! ماذا تنتظر بالله عليك ؟ »

كدت أشرح له فى برود ما اكتسبت من علم فى الساعات الماضية ، ثم قررت أن أصمت .. لا وقت لهذا ..

إن فقدان (أندرسن) لبروده ورباطة جأشه ليس مشهدًا سيئًا على كل حال .. هذه المرة ألعب أنا دور البارد بسماجة متناهية ..

وارتجَّ السدّ الذى وضعناه على الباب ، كأن وحشًا ضربه برأسه ، فأطلق (ميشكا) البندقية فى اللحظة ذاتها ..

ولبضع ثوان ساد الهدوء ..

لكن (بودرجا) صرخ فى ذعر .. وصرخة (بودرجا) تعنى كارثة دومًا ..

نظرنا جميعًا لأعلى حيث أشار ..

وعرفنا ما ينتظرنا ..

★ ★ ★

٤ ـ دعنا نفرّ من هنا .. !

صاح الصياد الروسى دون أن يبدل وقفته أمام الباب :

ـ « أطلقا الرصاص على السقف .. أنا لن أبرح موضعى هذا ! »

صوبت المسدس لأعلى ، وكذا فعل (بودرجا) ، وأطلقنا رصاصتين على اللبؤة التى كانت هناك ، والتى نجحت فى تمزيق جزء من سقف الكوخ المغطى بالقش ..

لا أدرى إن كنا أصبناها ، لكن رأسها المستدير وعينيها اللامعتين الجشعتين توارتا عبر الفتحة .. فلم نعد نرى سوى السماء الزرقاء الصافية .. وهتف السائق الكاميرونى :

ـ « كان هذا متوقعًا .. لا أدرى لماذا تأخرت الأسود فى عمله .. »

هنا حدث شىء مخيف ..

* * *

لم يدر أحدنا كنه الشيء الذى وثب من النافذة فى ثانية واحدة ، لكنه كان أسود شرسًا كالشيطان كريه الرائحة ..

وقبل أن نفهم ما يحدث ، وثب على (بودرجا) ليطبق بأنيابه على فخذه ، وهو يزوم فى شراسة ، واللعاب يتطاير من فمه ..

بدا لى ككلب بشع المظهر ، لكن (ميشكا) عرف على الفور أنه ضبع مُرقّط .. ورفع البندقية ليفرغها فى رأس الحيوان الذى كان على بعد مترين منه ..

انتهى المشهد الدامى الذى لم يستغرق سوى عشرين ثانية ، لكنه بدا لنا كأنما استغرق ثلاث ساعات ..

صحت فى هلع وأنا أرمق الجثة :

ـ « ضـ .. ضبع ؟ »

ـ « نعم .. ضبع مُرقط .. هذا يغير الأمور كلية ، فالأسود كانت عاجزة عن اقتحام النافذة ، أما الآن فقد وزعوا المهام جيدًا : الباب والسقف مهمة الأسود ، والنافذة مهمة الضباع .. »

وللمرة الأولى لمحت رجفة فى وجه (ميشـكا) .. إن الأمر فاق المخاطر التى اعتادها :

ـ « هذه ورطة حقيقية .. هذه الحيوانات الكريهة لاحصر لها ، ويقدر عدد منها على استنفاد ذخيرتنا .. »

قلت وأنا لا أفارق النافذة بعينى :

ـ « هذه الكلاب ؟ إننا نستطيع قتلها بالركلات .. »

ابتسم فى مرارة :

ـ « أنت تجهل كل شىء عن الضباع .. أولاً : هى ليست كلابًا على الإطلاق بـل هـى تمت بصلـة قربـى لحيوان (الماتجوس) ؛ ثانيًا : هى أكثر شراسة وانتحاريـة من الأسود .. »

وكأنما تؤكد صدق كلامه ، وثب ضبعان من النافذة فى آن واحد ، فأفرغ (بودرجا) ـ الذى صار حذرًا كقطـ رصاصتين فى جسديهما قبل أن يلمسا الأرض ..

حقًا قد صار الكوخ رائع الجمال بكل هذه الجثث ..

نظر (بودرجا) حوله ، ثم قال :

ـ « لقد صار استعمال الباب مغامرة بالغة الخطر .. »

ونظر لأعلى وأردف :

ـ « السقف ! سنحاول الفرار من السقف ! »

ـ « هل جننت ؟ إن الأسود هناك و .. »

ـ « لا أظن .. ربما كانت محاولة فردية عابرة .. »

ثم أشار إلى السائق ، وقال :

ـ « سنبدأ بك .. تتسلق لأعلى ، وتحاول جذب الآخرين ، فما إن نتمركز هناك حتى نغدو في وضع أفضل .. نرى كل ما حولنا ، ونتجنب المفاجآت ، ونعرف اللحظة المناسبة للفرار حين تملّ الوحوش مهاجمتنا ..

ابتلع السائق ريقه وسؤاله الطبيعي : لماذا أنا بالذات ؟

وأخذ مسدسًا من (بودرجا) ..

قلت للروسي في رعب :

ـ « ألا يوجد حلّ آخر ؟ لو وجد على السقف أسدًا ، فسيكون أول ما نسمعه منه هو صوت التهام عنقه ! »

ابتسم (ميشكا) في مرارة وقال :

- « لا يوجد حل آخر .. الانتظار هنا هو انتظار للأبد .. إن هذه الوحوش ذكية صبور .. وعلى كل حال الرجل هو أخفنا وزنًا ، وأنا مضطر لحمله حملاً إلى أعلى .. (بودرجا) جرح فى فخذه ، و (أندرسن) مصاب ، والساحر لا يصلح .. لو كنت تشعر بهذا الخوف عليه يمكنك التطوع وسنكون لك شاكرين ! »

لم أجد ما أقول ..

إنها لحظة من اللحظات التى يدوس الخوف فيها أى كبرياء لديك ، وكرهت الروسى لأنه وضعنى فى اختبار كهذا ..

وهكذا حملت أنا البندقية ووقفت جوار الباب ، على حين وقف (بودرجا) بمسدسه خلف النافذة ، ووقف الروسى العملاق تحت فتحة السقف التى صنعتها اللبؤة ، وساعد السائق كى يصعد على ساعديه ، ثم يضع حذائيه كل حذاء على كتف ..

كان الروسى قويًا كطود ، لكن جسده راح يتأرجح ويهتزّ وهو يحاول التماسك تحت ثقل حمله ، واحتقنت عروق رقبته حتى كاد الدم ينفجر منها ..



وقف الروسى العملاق تحت فتحة السقف التى صنعتها اللبؤة ، وساعد السائق كى يصعد على ساعديه ، ثم يضع حذائيه كل حذاء على كتف ..

ومن بعيد سمعت صوتًا رهيبًا .. كضحكات ساخرة ماجنة تتردد فى أرجاء القرية .. فيما بعد عرفت أن هذا هو صوت الضباع المرقطة ، لهذا يسمونها (الضباع الضاحكة) ..

أخيرًا يمسك السائق بحافة الفتحة .. يبرز صدره منها .. لحظة صمت لا داعى لها .. لذا صحت فى ذعر :

- « هل السقف نظيف ؟ »

ظلّ صامتًا ليثير غيظى .. ثم قال وقد ناديته ثانية :

- « لا شىء .. سأتسلق أكثر .. »

ورفع باقى جسده ليمرّ من الفتحة ، ويتوارى عنا ..

بعد ثوان برز وجهه فى الفجوة - حيث كان وجه اللبؤة من دقائق - وقال فى رضا :

- « لا بأس .. الموقع ممتاز فعلاً ، ويعطى رؤية واسعة للقرية .. إن الضباع مشغولة بالتهام الموتى ، والأسود تفتش هنا وهناك .. يبدو لى أن هذا هو المكان الأكثر أمنًا ..

هزّ الصياد الروسى رأسه ، وأشار لـ (بودرجا) الذى لم يكف فخذه عن النزف ..

رفعه بشىء من الجهد ، حتى استطاع الأخير أن يتمسك بكفّ السائق ، وسرعان ما لحق به لأعلى ..

قلت للروسى فى قلق :

ـ « هل ستتحمل رفع ثلاثة آخرين ؟ »

ـ « أعتقد هذا .. »

ـ « ومن يرفعك أنت ؟ .. إنك ثقيل كفرس النهر .. »

ـ « سنعبر ذلك الجسر حين نصل إليه .. »

وهكذا لحق (أندرسن) بالآخرين ، ثم جاء دورى ، وبعد قليل جاء الساحر المجنون ..

هل يتحمل السقف المصنوع من قش كل هؤلاء ؟ أدعو اللّه أن يفعل .. وبشكل غريزى ابتعدنا عن مركز السقف كى يرتكز ثقلنا على أطرافه المدعمة ..

وأدنيت رأسى من الفتحة ، وصحت :

ـ « (ميشكا) .. هلم ! هات يدك ! »

نظر حوله فى توتر ، ثم هتف :

ـ « البندقية ! هات البندقية حالاً ! »

وفهمت .. لقد بدأ اقتحام جديد لا يسمح له بوقت .. لا يسمح له بترف التسلق والتدلى من أعلى ..

ألقيت له بالبندقية ، ثم زحفت على بطنى فوق القش لأكون فوق مدخل الكوخ وأرى ما يحدث تحتى ..

ونظرت ..

كان ارتفاع السقف نحو ثلاثة أمتار ، وهو ارتفاع تافه لا يسمح لنا بالنجاة من وحوش وثابة بطبعها .. لكننا نلعب على استراتيجية الأماكن المرتفعة .. إن من يجد نفسه فى مستوى أعلى من خصمه يملك الكلمة الأخيرة غالبًا ..

ومن بعيد رأيت المشهد الذى وصفه لى السائق : الضباع تتصارع على الجثث ، وبعض الأسود توجه صفعات قاتلة للضباع التى تنازعها افتراس شىء ما .. يبدو أن الأسود قررت أن تذوق لحم الموتى على سبيل التغيير ..

الخلاصة : لم أجد وحشًا واحدًا حول الكوخ ..

يبدو أن الحيوانات تمرح قليلاً قبل أن تواصل محاولة الاقتحام التى أدركت أنها ليست شديدة السهولة ..

صحت من مكانى :

ـ « هلم يا (ميشكا) ! إنها لحظة سلام فاغتنمها ! »

ويبدو أنه اغتنمها بحق ..

دوّى صوت طلقة ، وأصدر السائق صوت (أوع !) ثم التصق أكثر بسقف الكوخ ، وصار واضحًا لكل ذى عينين أنه مات ..

مات بطلقة جاءت من أسفل !

* * *



٥ ـ الرائد (جيتادب)..

كنا نتبادل النظرات فى غباء ، حيث تمددنا على بطوننا فوق القش ..

لم يجرؤ واحد منا على الاعتراف بالحقيقة ، حتى اخترقت القشّ الطلقة الثانية ، لتمرّ على بعد سنتيمترات من كتف (أندرسن) ..

ومن أسفل سمعنا الروسى بصوته الغليظ ينشد (كالينكا) ..

هتف (أندرسن) غير مصدق :

ـ « إنه يطلق الرصاص علينا ! لقد جُنّ ! »

صحت وأنا أتراجع للوراء قليلاً :

ـ « بل هو مجنون ! عرفت هذا وشككت فيه ، لكنى تجاهلته بحماقة .. إنه الآن يمارس أمتع تجربة صيد مرّ بها فى حياته .. نحن على السقف معدومو الحيلة ، وكل ما عليه ، هو أن يطلق الرصاص كيفما اتفق ، وأعتقد أنه يراهن نفسه على الضحية التالية ! »

وانطلقت رصاصة أخرى ، وكان الجسد الذى تصلّب فى هذه المرة هو الجسد النحيل للساحر الإفريقى ..

صاح (بودرجا) متوسلاً :

ـ « أيها السيد ! كف عن هذا المزاح الثقيل .. إننا .. »

تعالى صوت الغناء بالروسية ، ثم جاء صوت الصياد يقهقه فى مرح :

ـ « نياهاهاهاه ! خدعتكم يا بؤساء ! أنتم الآن بطٌ معدوم الحيلة على السطح ينتظر الذبح ! »

وطلقة أخرى صفرت جوار رأسى ..

لقد جنّ حقًا .. كان هو أول من فقدوا اتزانهم ، وها هو ذا يمارس هواية الصيد فى أمتع صورها ..

هل كان يدارى الجنون طيلة هذا الوقت ؟ أم هو فقد الخيط الأخير الآن فقط ؟ لقد اختار أسوأ لحظة ممكنة .. مصيرنا يتراقص فى لعبة غير شريفة .. والرصاصة القادمة لمن ؟

صاح (أندرسن) :

ـ « فلنثب ! »

لكن منظر الأسود والضباع التى تجـوّل فـى ساحة القرية لم يبدُ لنـا مشـجعًا .. إن الوثـب معنـاه الهـلاك الأكيد ، أما هنا فالحظ قد يلعب لعبته لصالحنا ..

لو كان بوسعنا أن نخمن مكانه تحتنا لـ ..

وتوكلت على الله ، وأحكمت التصويب على موضع فى القش بدا لى أنه يعلو المكان الذى كنا فيه قبـل أن نصعد ..

بوم !

تعالى الغبار مع رائحة البارود ، ورأيت الجزء الذى ثقبتـه طلقتى ، وفى نفس اللحظة لمحت صلعة الرجـل الشاحبة تلتمع فى الضوء .. ولم أنتظر أكثر .. أطلقت من جديد .. بوم !

فهام ! فهام !

هاتان ـ كما لاحظتم من الصوت ـ لم تخرجـا من مسـدسى ، بل مـن بندقيتـه لأن رصـاصتىّ كالعـادة لم

تصيباه ، وعلى الفور أطلق (بودرجا) طلقتين أخريين عبر القش ..

أخيرًا ساد الهدوء ..

هل أصبناه ؟ لا أجرؤ على التمنى ..

لكنى حين جررت نفسى على القش وجدت أن ساقى اليمنى أضعف من اللازم ، وأنها تترك خيطًا من الدماء على القشّ .. لقد أصبت .. دون ألم ؟ ليس هذا غريبًا .. جنود كثيرون فى الحروب يدركون فجأة أنهم ينزفون أو أن سيقانهم ـ ببساطة ـ لم تعد هناك ..

تمنيت أن تسيل الدماء أكثر ، وتتخلل القش حتى تغرق الوحش الآدمى الأصلع المنتظر تحتى ..

من جديد يسود الهدوء ..

تساءل (بودرجا) :

ـ « أتراني أصبته ؟ »

ولما لم يجد منا إجابة ، كرّر فى ثقة :

ـ « أصبته .. »

قال (أندرسن) وهو يمدّ يده ليتحسس نبض السائق :

- « لا أنصحك بالنزول كى تتأكد .. »

وقلت أنا لاهثًا :

- « إنه يجيد كل أساليب الخداع ، وفى الغالب هو ينتظر منا بعض الثقة الزائدة .. »

ساد الصمت إلا من أنفاسنا الثقيلة وطنين الذباب الذى جُنّ بدوره .. الشمس تعتلى الأفق ، وتسلط حرارتها علينا بلا رحمة ..

قال (أندرسن) بنفاد صبر :

- « لن نبقى هنا حتى تجفف الشمس عظامنا .. »

- « لو كان لديك حلّ فعّال فلا تتركنا نموت شوقًا .. »

وفجأة دوّى صوت سلاح نارى .. سلاح من طراز مختلف تمامًا عن كل الـ (بوم) والـ (فهام) والـ (طاخ) .. كان يصدر صوت (راتاتاتاتاتا !) كأنها آلة كاتبة عملاقة تكتب عليها أسرع سكرتيرة فى الكون ..

ونظرنا لأسفل فوجدنا مشهدًا مثيرًا ..

★ ★ ★

حين جاء البروفسور (بارتلييه) ركضنا وراء (جيديون) ، كان الأخير فى حالة لا تسمح له بالنطق ..

ودون كلمة أخرى أشار إلى جدران المشرحة .. إلى الأسقف بشكل خاص ورأى (بارتلييه) ما يعنيه الرجل على الفور ..

إن مئات اللطخ السوداء على مواضع اتصال الجدران بالسقف ، تعنى دون ريب مئات الوطاويط المعلقة هناك تنتظر مجىء الليل ..

تساءل (بارتلييه) والقشعريرة تغزو عموده الفقرى :

ـ « ألم تكن هذه هنا أمس ؟ »

ـ « ولا واحد منها ! »

وارتجف أستاذ علم الأمراض الإنجليزى حنقًا ، وراح يطلق سيلاً من السباب على كل شىء فى وحدة (سافارى) :

ـ « وطاويط فى المشرحة ! لقد صار كل شىء ممكنًا ! وإننى لأتمنى أن تنذرنى قبل أن تبدأ فى التهام الجثث ! »

التقط (بارتلييه) أنفاسه المبهورة ، وقال :

ـ « (ديف) .. لا مشكلة هناك .. سيقوم العمال بإبادتها حالاً .. أريد أن تعدّ كل شىء لزوم تشريح جثة ذات أهمية خاصة .. »

ـ « من ؟ (بونابرت) مثلاً ؟ »

ابتلع (بارتلييه) السخرية ، وقال :

ـ « بل جثة تابع الصياد الروسى .. لقد توفى عند الفجر ، ويبدو لى أن جثته ستقدم لنا الحل النهائى للغز ! »

ثم جذب البروفسور من يده مبتعدًا ، وأردف :

ـ « لقد أصابه جنون هياجى فى أثناء اجتماعنا .. وضعناه تحت الملاحظة فى الحجز .. ولكننا وجدناه ميتًا عند الفجر .. هكذا ببساطة .. دون صراخ ولا معاناة ولا علامات معينة .. فقط مات ! »

★ ★ ★

حين نظرنا لأسفل وجدنا مشهدًا غريبًا ..

سيارة (جيب) من سيارات الجيش الخضراء ، بها نحو ستة جنود زنوج يقف أحدهم عند المؤخرة التى نُصب عليها ما يشبه (المترليوز) وكان يدور به ، موزعًا الموت والهول فى كل صوب على الأسود والضباع ..

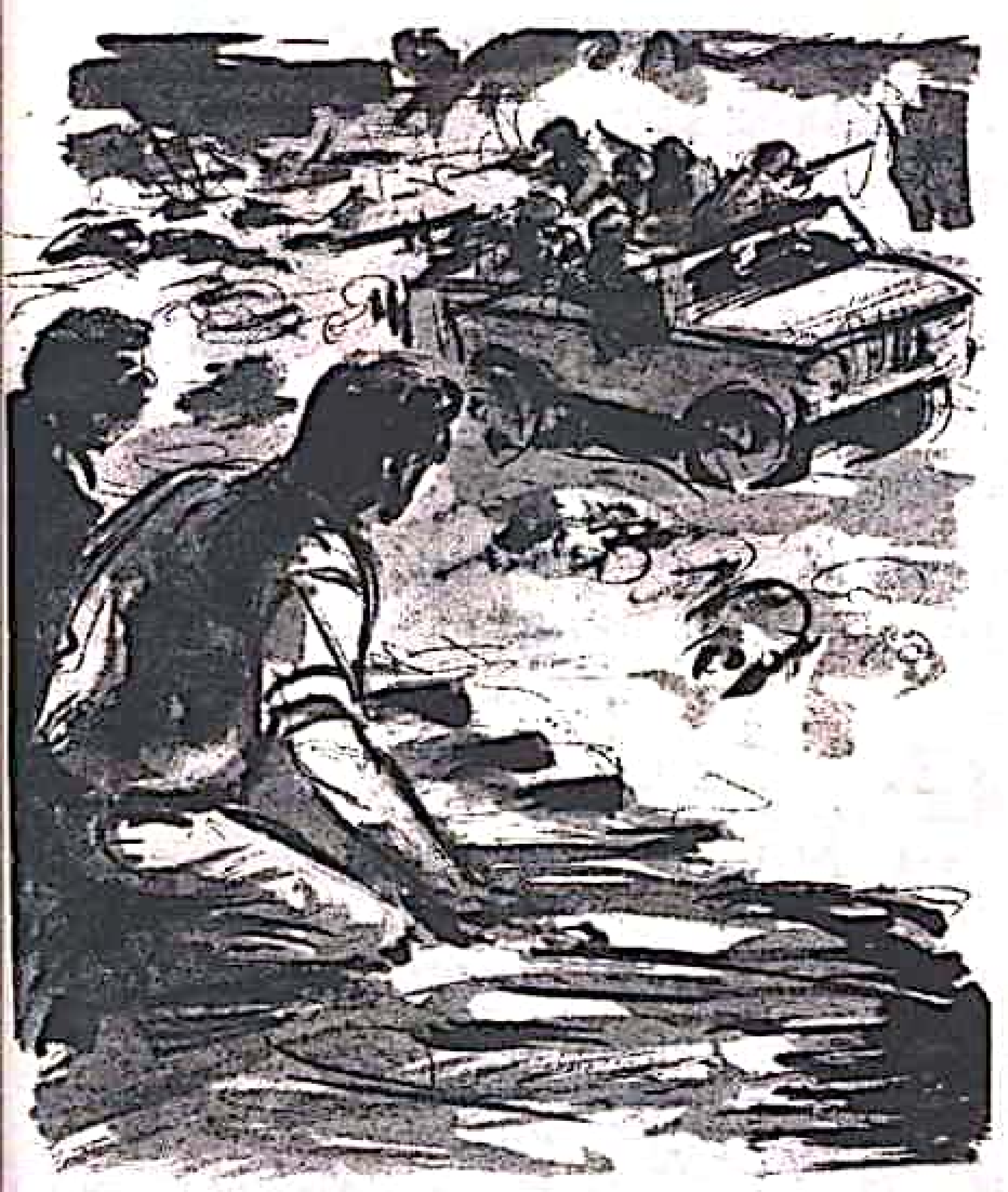
بدا واضحًا أن هؤلاء القوم يستمتعون بوقتهم ، وأدركت الوحوش أن فرصتها ضئيلة أمام هذا الهجوم غير المتوقع ، فراحت تركض مبتعدة وإن لم يستطع أكثرها أن يجد الوقت الكافى ..

وكان الجنود الآخرون ـ ما عدا السائق ـ يطلقون النار من بنادق آلية حديثة فى الجهات الأربع ، وليس الستّ لحسن الحظ ..

أخيرًا هدأت الضوضاء ، وتوقفت السيارة ..

ترجل الرجال ، وهم يتلفتون حولهم فى حذر ، ثم دنا أحدهم ـ يبدو أنه القائد ـ من الكوخ ، ونظر لأعلى وصاح :

ـ « يبدو أننا جئنا فى الوقت المناسب ! »



حين نظرنا لأسفل وجدنا مشهداً غريباً .. سيارة (چيب) من سيارات الجيش الخضراء ، بها نحو ستة جنود زنوج .. يقف أحدهم عند المؤخرة التى نصب عليها ..

كان يتكلم الفرنسية بصوت حلقى غليظ ..

ونزع خوذته جزئيًا كى يجفف رأسه من العرق ، فصاح به (أندرسن) وهو يشير لأسفل :

ـ « حذار ! هناك مخبول فى هذا الكوخ .. لانعرف إن كان حيًا أم .. »

تلفت الجندى حوله فى حيرة ، ثم أشار لرجاله :

ـ « مخبول فى هذا الـ .. عريف (أومبالا) والجندى (مومانْدى) .. »

ثم أصدر باقى الأمر بلغة وطنية لم أفهمها ..

ورأيت الجنديين يدنوان بحذر ليتفقا على جانبى الباب ، ثم بحركة مفاجئة اقتحما الكوخ متواريين عن عينى ، وسمعت دفعة من الطلقات .. ربما هى على سبيل التأمين لا أكثر ..

بعد ثانيتين خرج الرجلان ، وتبادلا كلمات مع القائد ..

رفع رأسه نحونا وعقيرته ، وقال :

ـ « لا أحد بالداخل .. بعض الحيوانات الميتة لا أكثر .. والآن يمكنكم النزول .. »

★ ★ ★

وهكذا ساعدونا فى الوثب من أعلى .. وكنت أنا أسوأ الآخرين حالاً بسبب ما أصاب ساقى ..

جلست على الأرض الموحلة ، ومددت ساقى ، على حين مزق (أندرسن) طرف سروالى الملطخ بالدماء ، وبدأ التضميد لمنع النزف .. لم أرد أن أنظر طبعًا ، لكنه أكد لى أن الوضع ليس سيئًا ..

سأل القائد الأسود (أندرسن) وهو يشعل لفافة تبغ :

ـ « الرصاصة ما زالت بالداخل .. هل يمكنك استخراجها ؟ »

قال (أندرسن) :

ـ « يمكننى .. لكنه سيموت بصدمة عصبية لو فعلت .. أفضل الانتظار حتى نعود معكم إلى (أداماوا) .. »

ـ « (أداماوا) ؟ من تكلم عن (أداماوا) ؟

قلت فى حيرة وأنا أتحسس الضمادة :

ـ « أليست قوات الجيش مرابطة فى (أداماوا) ؟

ـ « لا أحد هناك .. إن الفوضى تعمّ الإقليم .. »

ثم مدّ يده يصافحنى :

ـ « أنا الرائد (جيتادب) .. من أنتم ؟ »

قمنا بعملية التعارف ، وأخبرناه أننا فقدنا اثنين فوق السطح لم تقتلهمها الوحوش ولكن الروسى الذى جُنّ ..

قال ضاحكًا وهو يعطى لفافة تبغ لـ (أندرسن) :

ـ « آه طبعًا .. يوجد الكثير من الجنون فى قرى المنطقة الآن .. نحن ذاهبون إلى (أنجاوانديرى) ؛ فهل ترغبون فى اللحاق بنا ؟ »

تبادلنا النظرات ..

طفل ضلّ طريقه ، يعرض عليه أحدهم أن يعيده إلى حضن أمه ، ثم يسأله إن كان يرغب هذا حقًا !

إن الأسئلة السخيفة مضيعة للوقت حتمًا ..

قال (أندرسن) فى لهفة :

ـ « طبعًا نرغب .. »

كان قد نسى تمامًا مفاتيح أدائه البارد ، ووجدت أننى قادر على حبّه واستلطافه كصديق الآن .. لابد من كارثة بيئية كى تجعل (أندرسن) مقبولاً بعض الشىء ..

ولا أدرى كيف حشرنا أنفسنا فى سيارة (الجيب) مع الجنود ، وقد لاحظت أنهم جميعًا يضعون علامات الشقوق إياها على الخدين ، مما دلنى على أنهم فى الغالب من قبيلة واحدة ..

قال (بودرجا) همسًا ، وهو يحاول حشر ردفيه فى مساحة عشرة سنتيمترات مربعة :

- « إنهم من (الفولانى) .. سكان الشمال هنا .. »

وانطلقت السيارة تنهب الأرض نهبًا وتطويها طيًّا - كما يصرّ أستاذ اللغة العربية فى مدرستى - تعبر (السافانا) نحو فاصل آخر من قصتنا ..

* * *



٦ ـ لن يذهبوا هناك ..

قرّب (جيديون) الميكروفون من فمه ، وضغط على زرّ (التحكم عن بعد) الذى يبدأ تشغيل الشريط ، ثم ارتدى القفازين وقال :

ـ « سأصف هنا بالتفصيل عملية تشريح جثة الكينى الذى توفى أمس فى الحجر .. أهمية هذا التشريح هى أننا للمرة الأولى نجد شخصًا قتله الجنون الذى يجتاح البلاد .. قتله بشكل تلقائى لا شبهة للعنف أو المرض فيه ، ومن المفترض أن يقدم لنا التشريح بداية خيط يقودنا إلى الحقيقة .. »

وأخذ شهيقًا عميقًا ، ونظر إلى السقف ليتأكد من أن الوطاويط قد رحلت ، وأن الأفاعى لم تأت بدلاً منها ..

ثم قال لمساعده الكورى :

ـ « فلنبدأ .. »

★ ★ ★

الحقيقة .. !

كان هذا هو السؤال الذى يلحّ على ذهنى حيث جلست فى عربة (الجيب) ، غير قادر على التنفس من سرعة الهواء الذى يضرب وجهى ويتخلل لحيتى ..

انحنيت إلى الأمام لأقرب فمى من أذن الرائد ، وصحت :

ـ « هل وصلتم إلى تفسير بصدد ما يحدث ؟ »

أدار وجهه الأبنوسى اللامع نحوى ، وتساءل :

ـ « بصدد ماذا ؟ »

ـ « الجنون الذى عمّ الوحوش وبدأ يتسرب إلى الكائنات البشرية .. هل هى كارثة بيئية ما ؟ هل هو وباء من الحمى المخية ؟ هل ثمة فيضان أو زلزال فى مكان ما ؟ هل ثار (ماونت كاميرون) العجوز وشعرت به الحيوانات ؟ هل هى نهاية العالم ؟ »

ابتسم فى تهكم ، وقال :

ـ « لم يصلنا شىء .. لقد صار القطاع كله مبتوراً عن العالم الخارجى وعن (ياوندى) .. أعتقد أنهم يعرفون الحقائق كلها فى العاصمة لكنهم لم يستطيعوا

الاتصال بنا بعد .. على كل حال : ليس المطلوب منا سوى شىء واحد .. أن نظل أحياء .. هذا هو ما سنفعله لو كان السبب هو الوباء أو البركان أو الزلازل أو نهاية العالم .. »

كلام منطقى طبعًا ..

بعد قليل قال كأنما يتذكر :

ـ «لقد هربنا من الكتيبة بعد ما بدأ الجميع فى تبادل الرصاص .. لسبب ما لم نجنّ بدورنا ، ولعل جنوننا كان أكثر رفقًا .. كنا سنموت بلا ألم .. »

وساد الصمت ، فعاد ينظر أمامه ..

ورحت أرمق الطريق ، أحاول ألا أفكر فى ساقى المصابة .. لن يكون النزف هو سبب هلاكى .. لكننا فى بيئة عضوية ملوثة .. كل شىء يفسد ويتعفن ويتخمر ، والمعجزة الحقيقية هى أن تُجرح فى ساقك ثم لا تفقدها بسبب (الغنغرينا) ..

أفكار مقلقة حاولت أن أستبعدها ..

صبرًا .. نحن فى الطريق إلى (سافارى) ، ولن

يصعب أن أجد من الجراحين البارعين من يعيد لى ساقى سالمة نضرة كما اعتدتها ..

بتر ؟ لا .. هذا لن يحدث لى .. لن يحدث ..

وتذكرت المشهد الرهيب من فيلم (يرقص مع الذئاب) ؛ حين فرد (كيفين كوستنر) ذراعيه مستسلمًا ، وانطلق بجواده أمام صفة من بنادق الجنوبيين ، راغبًا فى الموت ، فقط كى لا يبتر جراحو الجيش الجزارون ساقه !

ساعدنى يا إلهى ..

* * *

كان الجنود لا يكفون عن المزاح ، والقهقهة الإفريقية الطويلة الشبيهة بالنواح .. الأمر الذي بدا لى غريبًا .. روح مرح جديرة بالإعجاب حقًا .. واستدار الرائد إلى الوراء ، وزجرهم فى غلظة فصمتوا .. ومن جديد عاد الصمت ..

نظرت إلى (بودرجا) فوجدته نائمًا أو شبه نائم .. المسكين ! لقد عانى الكثير بحق فى هذه الحملة ، وفخذه ليست أفضل حالاً من ساقى .. لقد فعل بها الضبع الكثير ..

وفجأة فتح عينيه ..

نظرة مخيفة مثيرة للقلق تلتمع فيهما ، ولون أحمر خالط لون الصلبة الأصفر فبدا منظـره شيطانيًا .. هل هو خائف أم مخيف ؟ لا أدرى .

كدت أتكلم لكنه قرّب فمه من أذنى وهمس :

ـ «ششش ! لم أكن نائمًا .. كنت أتظاهر بالنوم .. »

قلت فى غباء :

ـ « هذه فكرة لا بأس بها .. ولكن لماذا ؟ »

ـ « ششش ! ليأخذوا راحتهم فى الكلام ! »

ـ «من ؟ الجنود ؟»

ـ «نعم .. إنهم يتكلمون بلهجة غريبـة من لهجـات (الفولانى) ، وفى الغـالب يحسبوننى لا أفهم حرفـا .. المفترض أننى لا أتكلم غير (البانتويد) أو (السودانية) .. وقد تماديت فى خداعهم بالتظاهر بالنوم .. »

ـ « كل هذا جميل .. لكن ما معنى الـ .. ؟ »

كانت لهجتـه تكتسب فى كل ثانيـة قـوة إيجـابيـة

كاسحة ، ولم يعد يمت بصلة لـ (بودرجا) المذعور المسكين .. كان يعرف ما يقول ويفعل :

ـ « هؤلاء الجنود لايتجهون إلى (أنجاواتيرى) ! »

قالها همسًا فى أذنى ، فأجفلت :

ـ « ماذا ؟ ولماذا ؟ »

ـ « ششش ! إنهم يبحثون عن مكان بعيد عن الوحوش والبشر معًا .. »

ـ « ولماذا ؟ »

ـ « لا أفهم كل حديثهم .. لكن ما فهمته منه يدلنى على أنهم جائعون .. إنهم ينتوون التهامنا يا دكتور !! »

★ ★ ★

٧ ـ مزيد من المرح !

فى فاى فو فام !

إننى أشم دماء رجل إنجليزى ..

فلئن كان حيًا أو ميتًا ..

سأسحق عظامه ، وأصنع منها دقيقًا لخبزى !

★ ★ ★

(بودرجا) ! تبًا لك من أحمق ! إن جهلك باللغات سيودى بنا إلى الهلاك أو ما هو أسوأ ..

بالتأكيد أنت أسأت الفهم .. بالتأكيد أنت معتوه ..

لكنى شعرت من البداية بشىء غير مريح فيما يتعلق بهذا الرائد (جيتادب) ورجاله .. إنهم مرحون جدًا ، يستمتعون بوقتهم بحق .. روح معنوية أعلى من اللازم ..

ثم ما الذى يفعله ورجاله غير النزهة بالسيارة ، وإطلاق الرصاص على الوحوش ؟ هل سيبيدونها بهذه الطريقة ؟

مِلتُ أسأل (بودرجا) همسًا :

ـ « هل أنت واثق مما تقول ؟ »

ـ « كل الثقة .. إن الكلمات التى سمعتها كافية .. »

همست فى ارتياب :

ـ « ومنذ متى يُمارس التهام لحم البشر فى (الكاميرون) ؟ »

ـ « منذ راحت الأسود تجول فى (سافارى) ، وراحت الفئران تهاجم القرى ! نحن فى زمن مجنون ، وكل شىء جائز .. »

ابتلعت ريقى ونظرت إلى الأمام ، وقلت :

ـ « إذن نحن فى مأزق حقيقى ! »

★ ★ ★

كانت المشكلة الآن هى إخطار (أندرسن) بالموضوع ..

لكنه كان محشورًا بين اثنين من الزنوج ، وقد انغمس وجهه تحت إبط أحدهما ، ولم يبدُ مستمتعًا إلى هذا الحدّ برائحة العرق ..

خطر لى أن أكلمه بالإنجليزية ، ثم خفت أن يكون هذا الرائد مثقفًا أكثر مما أظن .. لا حلّ سوى أن نتصرف وحدنا ..

مِلتُ إلى الأمام ، وصحت بالرائد :

ـ « هلاّ توقفنا قليلاً ؟ أريد تلبية نداء الطبيعة ، والاهتزازات قد .. »

هزّ رأسه فى فهم ، وضحك ، ثم قال للسائق شيئًا ما ، فأبطأ هذا الأخير بالسيارة وسمح لى بأن أترجّل .. فقطعت المسافة وثبًا ..

كنا فى سهل شاسع من سهول (السافانا) .. يسهل قول هذا .. لكن العسير حقًا هو أن تعرف موضعك من خارطة إفريقيا ..

تقدمت مسافة كافية ، ووقفت موليًا إياهم ظهرى . وعقلى لا يكفّ عن العمل .. يجب أن أكون حازمًا .. يجب ..

صحت مناديًا الرائد بعد دقيقة :

ـ « سيدى .. هلا لحقت بى ؟ أريد كلمة على انفراد .. »

نظر لمن حوله ، وبدا واضحًا أنه لم يعتد تلقى الأوامر ، لكنه فى النهاية قرر أن يجاملنى ويترجل ..

درت حول الشجرة وانتظرته ..

أخيرًا جاء (الغول) فى ثقة وهدوء .. أسنانه البيضاء تلتمع فى وجهه الأبنوسى ، والخوذة تدارى عينيه فلا أدرى لأين ينظر ..

ـ « ماذا هنالك يا دكتور ؟ »

ـ « هذا ! »

وبيد مرتجفة ألصقتُ فوهة المسدس الذى أحمله إلى أنفه ، وبكلمات أردتها مهددة فجاءت متوسلة قلت :

ـ « أريد هدوءًا مطلقًا .. ستأمر رجالك بأن يترجلوا ويلقوا بما يحملونَ من سلاح ، ويجيئوا إلى هنا .. نريد السيارة نظيفة .. »

كما توقعت لم يبدِ ذعرًا ولا ضيقًا ..

فقط ازدادت ضحكته اتساعًا ، وببشاشة تامة قال :

ـ « آها ! هذا تصرف خطير يا دكتور .. صدقنى لست أنت بالشخص الذى يتورط فى حماقة كهذه .. »



وبيد مرتجفة ألصقت فوهة المسدس الذى أحمله إلى أنفه ،
وبكلمات أردتها مهددة فجاءت متوسلة قلت :
ـ أريد هدوءاً مطلقاً ..

ـ « أنا لا أمزح ! »

وتراجعت للوراء خطوة كى أمنعه من الالتحـام بـى لو أراد ..

ومن جديد أمرته :

ـ « هيا ! مُرهم الآن ! »

نظر لى فى تحد ، ثم صاح بعبارة ما بأعلى صوته ، ولم أفهم ما قيل طبعًا لكنـه كان مختلفًا بالتأكيد عمـا أردته ..

رأيت الرجـال يبحثـون عـن بنـادقهم ويتهيئـون للإطلاق ، وبطبيعة الحال كان (بودرجا) الوحيد الذى فهم ما يحدث .. وكان ردّ فعله مذهلاً ..

لقد أطلق ثلاث رصاصات متوالية فرأيت ثلاثة رجال يسقطون ، ثم وثب من السيارة وهو يهدّد الباقين الذين لم يجدوا الوقت الكافى للوصول إلى سلاحهم ..

ـ « ناديو أنجوزى كومبو ! »

كان هذا الأمر الحاسم موجهًـا للجندى الـذى يقف عند (المترليوز) فى مؤخرة السيارة ، فرفع ذراعيـه فى الهواء ووثب مترجلاً ..

ـ « نيااااااه ! »

هذه كانت من الرائد نفسه ، الذى كشر عن أسنانه البيضـاء ، وتقلـص وجهـه فـى تعبير مريـع ، يجمـع ما بين التوحش والاستمتاع ..

ووثب نحوى .. وثب بالمعنى الحرفى للكلمة ، كما تُرى الفهود فى الصور تثب على ضحاياها ..

هذه المرة لم يكن بوسعى أن أجد حلاً وسيطاً ..

ضغطت على الزناد ، وانطلقت الرصاصة ..

وحين فهمت ما يحدث كـان الرجل علـى الأرض ، يرمقنى فى كراهيـة بعينيـن محتقنتيـن ، ويـده تعتصر صدره ..

تراجعت للوراء ، وتواثبت كاللقلق إلى حيث كـانت السيارة ..

كان الجنود يقفون مذهولين ، يرمقوننا فى كراهية مماثلة لكراهية قائدهم ..

صحت فى (أندرسن) الذى كان يرمقنا فـى غبـاء إسكندنافى صميم .

ـ « (أندرسن) ! ستقود أنت السيارة ! »

بدا مترددًا ، بينما وثبت و (بودرجا) إلى الداخل ، فصحت :

ـ « قُد حالاً يا أبله ! »

وسلطت و (بودرجا) مسدسينا على الجنود الذين بدأوا يتحركون فى بطء وثقة نحونا ..

« قُدْ ! »

وثب (أندرسن) إلى مقعد القيادة ، وفتح الباب ليلقى بجثة السائق إلى الخارج ، ثم أمسك بالمقود وداس دوّاسة الوقود ..

وسرعان ما انطلقت السيارة مبتعدة ..

★ ★ ★

صاح (أندرسن) مغيظًا ، وهو يحرك المقود بعصبية :

ـ « هلا تفضل أحدكم بالشرح ؟ »

قلت له إن هؤلاء المنقذين كانوا أكلة لحوم بشر .. لا أكثر ..

ـ « هراء ! لا يوجد أكلة لحوم بشر فى (الكاميرون) كلها .. »

ـ « قل هذا لـ (بودرجا) .. »

ثم سألت (بودرجا) الذى استرخى فى مقعده :

ـ « ماذا قال لرجاله ؟ »

تأمل المسدس فى قنوط ، ثم طوّح به إلى الخارج .

ـ « فارغ ! تسأل عما قال لرجاله ؟ قال لهم : لقد عرفوا سرنا .. إنهم قليلوا الخبرة بالقتال ، وذخيرتهم لا تكفى للجميع .. حتى لو قتلنى هذا فلا مشكلة .. أبيدوهم ! »

ـ « يا له من بطل حقيقى ! »

هنا صاح (أندرسن) فى عصبية :

ـ « لماذا لم تقد السيارة أنت يا (علاء) ؟ »

ـ « يا له من سؤال ! إن حالة ساقى لا تسمح .. ثم إننى .. »

وأضفت باسمًا فى خجل :

ـ « لا أعرف كيف يقودون هذه السيارات ! »

★ ★ ★

بعد دقائق استطاع (بودرجا) أن يجمع البنادق الآلية لهؤلاء السادة .. كان قد بقى منها ثلاث ، وكانت محشوة على ما أظن .. بالإضافة لهذا بدا أن (المترليوز) الموجود فى مؤخرة السيارة يعمل بشكل جيد ..

هذا يجعل منا وحدة قتالية كاملة ..

المشكلة هى ألا نقابل وحدات جيش أخرى ، لأن تفسير ما قمنا به كان عسيرًا بحق ..

الشىء الثانى الذى وجده هو كيس من المشمع .. كيس ملىء بأشياء رهيبة تؤكد براعته فى الترجمة ..

لقد كان المصير الذى ينتظرنا رهيبًا ، وما كنا لنكون الوجبة الأولى لهذا اليوم ، فقد قام الرائد (جيتادب) ورجاله بعمل مجيد قبل لقائنا ..

وفى اشمئزاز طوّح (بودرجا) بالكيس خارج السيارة ..

قال (أندرسن) فى ضيق :

ـ « إن كل شىء شبيه بالكوابيس .. أنت لا تستطيع

أن تثق بأحد حتى رجال الجيش لو قابناهم .. فلربما كانوا كهؤلاء .. »

قلت وأنا أتحسس ساقى المضمدة :

ـ « الغريب أن (ميشكا) قد ذاب تمامًا .. »

ـ « لابد أنه رأى موكبهم الصاخب من نافذة الكوخ، واستطاع أن يتسلل بشكل ما فى أثناء المحادثة .. لن يذهب بعيدًا على كل حال .. »

ومن بين الأشجار برز لنا فهد متحمس ، قرّر أن يلحق بالسيارة بأى ثمن ..

زاد (أندرسن) من سرعته ، بينما الحيوان الرشيق يثب وثبات سريعة خلفنا .. فى لحظة حسبته سيلحق بنا ، لكن قواه خارت بعد قليل ، واتسعت الفجوة بيننا وبينه .. وأخيرًا تلاشى بعيدًا ..

قال (أندرسن) :

ـ « هل رأيت ؟ حتى بوجود سيارة ما زالت فرصة النجاة واهية ، فكيف بمن يحاول عبور (السافانا) مترجلاً ؟ »

* * *

لا بد أن ساعة كاملة مضت ، ونحن نمشى فى خط لم نختره ، لكن رسمته لنا الطبيعة ..

ومن بعيد كنا نرى بعض القرى ، لكننا لم نجسر على دخولها كى لا نكرر تجربة أمس .. فى الغالب هى مهجورة تمامًا ..

بشخصيته الجديدة الواثقة تساءل (بودرجا) :

ـ « هل من خطة ؟ لن نستمر هكذا للأبد .. »

قلت :

ـ « من الواضح أننا لن نطبق خطة (أداماوا) إلى النهاية .. قد حان أوان العودة إلى (سافارى) ، وإبلاغ المدير أن الجحيم ينتظر هناك ، وأن الفشل مصير كل من يتجاسر .. »

ابتسم (أندرسن) وهو يرمق السماء :

ـ « كل هذا جميل .. لكن أين (سافارى) ؟ »

حقًا .. كان كل شىء متشابهًا .. لقد ضللنا الطريق دون علامات سير ولا خارطة ولا بوصلة ، ولا أهال ودودين يرعون ماشيتهم ، ويشيرون فى طيب خاطر إلى الاتجاه الصحيح ..

ـ « نحن فى مكان ما من غرب إفريقيا » ـ قلتها فى مرارة ـ « وهذا يجعل الأمر أكثر سهولة ! »

لنفرض أننا استطعنا حساب الجهات الأصلية .. هذا سهل .. تعطى ظهرك للشمس الغاربة ، عندها يكون الجنوب عن يمينك ، والشمال عن يسارك ، والشرق أمامك .. (مازلنا عصرًا على كل حال ، ومن العسير تجربة هذا) .

حتى لو فعلنا هذا ، فأين الطريق إلى (أنجاوانديرى) ؟

إنه .. لكابوس ..

* * *

٨ ـ جراحة فى البرارى ..

ـ « هل أنت واثق مما تقول ؟ »

ـ « أنا لا أمزح يا (بارتلييه) ، ولا أقول شيئًا جزافًا .. »

ـ « وما هى دلالتك على هذا ؟ »

ـ «كل شىء .. الصفة التشريحية .. نتائج المعمل .. الأشعة السينية على الصدر .. لقد توفى هذا البائس بجرعة عالية من غاز (ثانى أوكسيد الكبريت) .. »

ـ « غريب حقًا .. وهل الخبال من علامات التسمم بثانى أوكسيد الكبريت ؟ »

ـ « بالطبع لا .. أو هذا لم يصل إلى علمى بعد .. »

ـ « إذن ما الذى تريد قوله ؟ »

ـ « إن صورة التشريح هذه لم أرها إلا عام ١٩٨٦ حين قمت بتشريح بعض ضحايا ثورة (ماونت كاميرون) المفاجئة .. »

ـ « أى أن (ماونت كاميرون) قد ثار من جديد ؟ »

ـ « فى الغالب لا ، وإلا لشعرنا بالاهتزازات السيزمية .. إنه فى مرحلة انبعاث الغازات السامة ، وقد يلى هذا الانفجار النهائى أو لا يليه .. تحتاج إلى خبير جيولوجى ليخبرك بهذا .. »

ـ « وهم بالطبع يعلمون فى (ياوندى) .. »

ـ « بالتأكيد .. لكن من الواضح أن البلد كله فى حالة غريبة من الفوضى ، والاتصالات بأنواعها معطلة .. إننا آخر من يعلم فى كل الكوارث ، وعزاؤنا الوحيد هذه المرة هو أن الأمر خارج عن إرادتهم .. »

ـ « تريد القول إن الغازات السامة هى سبب ما يحدث ؟ »

ـ « لا أدرى .. إن البراكين نشاط جيولوجى معقد : غازات واهتزازات وكهرباء إستاتيكية .. كل هذا يلعب دورًا فى التأثير على الجهاز العصبى للإنسان والحيوان معًا .. »

ومدّ (جيديون) يده إلى حافظة أوراق يحملها ، وفتش عن ورقتين امتلأتا بالعلامات الصفراء التى وضعها بقلم مضىء ، وقال لمدير الوحدة المذهول :

ـ «لدى هنا بيان عن التغيرات النفسية التى صاحبت زيادة نشاط بركان المكسيك الشهير (بوبوكات إبتل) عام ١٩٩٣(*)

« لقد بدأت الموجات (السيزمية) تتزايد ، وتصاعد من فوهة البركان ما يعادل عشرة آلاف طن من (ثانى أوكسيد الكبريت) يوميًا ..

« بدأت مشاكل نفسية تظهر لدى الأهالى ، منها الاكتئاب والتوتر والعُصاب والذُّهان ..

« مع براكين أخرى أكثر تهذيبًا ، لوحظ اضطراب نفسى واضح لدى الأطفال أدّى إلى تفاقم حالات الربو الشعبى .. هل تفهم ما أعنيه ؟ لم يسبب الغاز زيادة الربو .. الاضطراب النفسى كان هو المسئول عن هذا ..

« بعد قنبلة (هيروشيما) لوحظ تفشى الخوف والكراهية ـ التى تصل إلى حد الشجار والعنف ـ لدى فرق الإنقاذ ، وقد أطلق علماء النفس على هذه

(*) حقيقة كالعادة ..

الحالات اسم (Acute Stress Disorder) أو (اضطراب التوتر الحادّ) .. (A. S. D) ..

« نفس الأعـراض لوحظـت لـدى الحيوانـات .. إن هياجها لدى حدوث الكوارث الطبيعية معـروف ، لكننـا هنا بصدد تبدل كامل فى السلوك الجماعى .. باختصار : جنون كامل .. »

وأعـاد الأوراق إلـى حافظتـه ، وراح فـــى كبريــاء صارم ينتظر ما سيقوله المدير ..

قال (بارتلييه) أخيرًا :

ـ « لقد فهمنا ما كان وما سيكون .. لكننا لن نعرف أبدًا مـا ينبغـى أن يكـون .. يبـدو أن سياسـة (البقـاء أحياء) والانتظار هى الصواب الوحيد ، ويوم تسـتعيد (ياونـدى) السيطرة على باقى الجسد ، ستكون هذه نـهاية الكابوس .. »

ابتسم (جيديون) ، وقال فى قسوة :

ـ « أنت المدير علـى كـل حـال والقرار قرارك ، لكنى لا أحب كثيرًا أن أجد نفسى مكانك ! إن العواصف تهـزّ الأشجـار السـامقـة ، لكنهـا لا تـؤذى الأعشـاب

كثيرًا .. وأنا مجرد عشب تحت شجرتك السامقة التى أرجو ألا تهوى ! »

نظر له (بارتلييه) ولم يقل شيئًا ..

كان يفكر فى مصير الحملة التى أرسلها إلى (أداماوا) ..

* * *

الطريف ها هنا أن أفراد الحملة أنفسهم لم يكونوا يعرفون حرفًا عن مصيرهم .. لقد واصلنا رحلتنا فى سيارة الجيش المسروقة وسط قرى الأشباح هذه ، وتعرضنا لهجمات لا حصر لها من وحوش متحمسة لم تكن الأفيال بينها لحسن الحظ ..

فى النهاية قال (بودرجا) فى يأس :

ـ « إننا ندور فى دائرة كبيرة .. هذا واضح .. »

استدار (أندرسن) نحوه فى حيرة ، وتساءل :

ـ « دائرة ؟ ماذا يدعوك إلى هذا الظن ؟ »

أشرقت أسنان (بودرجا) البيضاء فى وجهه الأسود .

ـ « هذه بلادى وأنا أعرفها .. ليس إلى درجة الوصول إلى (أنجاوانديرى) طبعًا ، لكننى أعرف المكان الذى زرته من قبل حين أراه .. »

وصمتنا مفكرين ..

(بودرجا) على حق .. صحيح أن (السافانا) تتشابه فى كل مكان ، لكن ذلك الجزء الغريزى فى أعماقى والذى يتمتع به كل حمار يحترم نفسه فى أية قرية ، ذلك الجزء الذى يعرف الاتجاهات ويحفظها عن ظهر قلب ، عرف على الفور أننا ندور بلا هدف فى دائرة هائلة القطر ..

وإن هى إلا دقائق حتى لمحنا السيارة (الفان) المقلوبة ..

السيارة التى انقلبت بنا أمس ..

★ ★ ★

وقفنا حول السيارة نتفحصها ..

قال (أندرسن) وهو يجرع بعض الماء من زمزمية نسيناها هناك :

ـ « على الأقل نحن وجدنا الطريق المؤدى إلى (سافارى) .. سنتجه بالعكس . لقد كان هذا الجزء من الرحلة واضحًا ، ولدينا هنا خارطة وآثار عجلات السيارة .. »

وتفحص الأشياء الموجودة ، وفى رضا غمغم :

ـ « يوجد ماء ووقود .. لا أدرى كيف يمكن أن نفشل .. »

ثم خرج بالشىء الذى كنت أخشاه ..

حقيبة الأدوات الطبية التى تركناها هنا أمس ..

قال فى حذر :

ـ « هنا بعض (البتدين) ومبضع وجفت .. لا أدرى إن كنت توافقنى الرأى ، لكن ..

ـ « هل تستطيع انتزاعها حقًّا ؟ »

ـ « لست جراحًا بارعًا ، لكنى سأمزق كل شىء حتى أجدها .. الأمر هين كما ترى ! »

نظرت لساقى ، وأدركت أن علىّ المخاطرة .. ربما كان (أندرسن) جزارًا أخرق ، لكن ترك ساقى بحالتها هذه كل هذه الساعات أمر لا يبشر بأى خير ..

وهكذا تمددت على الكلأ ، وأراح (بودرجا) ساقى على منشفة نظيفة ، فيما راح (أندرسن) يسكب بعض الكحول على معدّات الجراحة ، ومددت له ذراعى فأولج فيها الإبرة ، وأفرغ نصف أمبول من (البتدين) جعل رأسى يدور بحق ، ونظرت إلى السماء أدعو الله أن ينتهى كل هذا ..

لم يكن هذا تخديرًا محترمًا بل هو (تسكين) لا أكثر .. وقد ظللت أضغط على أعصابى مصغيًا لصوت القطع والتمزيق ، وصوت الجفت المعدنى إذ ينطبق على شىء ما من أنسجتى ..

كان (أندرسن) يلهث .. نعم هو ليس جراحًا ، وما يقوم به مجرد استعادة لذكرياته كطبيب مقيم فى مستشفى ما فى وطنه ..

ـ « ها هى ذى .. إنها ملامسة للعظام تمامًا .. صبرًا ! لا تتحرك ! »

تبًا ! إنها مراوغة .. هيه ! لقد دنوت .. »

ورأس (بودرجا) جواره يتأمل فى استمتاع هذه الفقرة المثيرة ، حتى توقعت فى أية لحظة أن يمدّ يده

بدوره ـ دون تعقيم ـ ليأخذ دوره فى هذه اللعبة المسلية ..

ـ « هذا الـ (بتدين) مغشوس أيها النصاب ! »

قلتها له ، وعدت أضغط على أسنانى ..

أخيرًا رأيته يرفع يده بالجفت ، ورأيت المقذوف المعدنى الملوث بالدم بين فكّى الجفت .

ثم بدأت عملية إعادة الأمور إلى حالها ..

قال وهو يمسك بإبرة الخياطة :

ـ « لن أستطيع إعادة كل شىء .. لقد قمت بإتلاف أنسجة كثيرة .. »

ـ « تبًا لك ! »

ـ « لكنى سأغلق الجلد بغرزتين منعًا للتلوث .. وبعد هذا سأعطيك جرعة من مصل (التيتانوس) والمضادّ الحيوى .. »

قال (بودرجا) وهو يتحسس فخذه :

ـ « ومصل الكلب لى .. »



أخيراً رأيته يرفع يده بالجفت ، ورأيت المقذوف المعدنى الملوث بالدم بين فكّى الجفت ..

ـ « أما هذا فلا .. نحن لانحمل شيئًا منه .. سننتظر حتى نعود يا صاحبى .. »

وانتهى (أندرسن) من جراحته الخرقاء ، ففك ربطة النزف (تورنيكيه) ، وبدأ يضمّد ساقى ، فلما فرغ قال وهو يتأمل عمله منبهرًا :

ـ « رائع ! ولا قطرة دماء واحدة ! »

ـ « لأنك قتلتنى فى الغالب .. »

ونهضت مترنحًا ، وبحثت عن شىء يصلح ، فلم أجد سوى غصن شجرة سميك يصلح لاستخدامه عكازًا ..

قال (بودرجا) فى توتر وهو محتبٍ على الأرض :

ـ « أرى أن نرحل الآن .. ثمة شىء قادم .. لا أدرى ما هو لكنه ضخم يرج الأرض رجًا .. »

تبادلنا النظرات ، ثم لم ننتظر أكثر ..

وثبنا إلى السيارة (الجيب) بعد ما وضعنا غنائمنا فيها ، وانطلق (أندرسن) فى الاتجاه الذى جئنا منه أمس حين هاجم الفيل سيارتنا ..

أخيرًا دنونا من ذلك الخط الوهمى الذى يسمونه الأفق ، والذى يبدأ عنده أفق جديد ، وأدركنا أن سحب الغبار تعلو أكثر من اللازم ..

كان الطريق مسدودًا بمصدر الصوت الذى سمعه (بودرجا) ..

هناك قطيع من الأفيال يمشى فى صف واحد ، مثيرًا الغبار من حوله ، ويرغم بطئه وخطوته الوئيدة كان فى طريقه لنا ..

صاح (بودرجا) فى رعب :

ـ « إنهم غاضبون ! عُد أدراجك يا دكتور ، ولاتحاول أن تمرّ جوارهم .. »

لم ينتظر (أندرسن) مزيدًا من النصائح ، لأنه حرك عصا السرعات إلى وضع القهقرى ، وحرّك المقود ليدور دورة كاملة بالسيارة إلى الاتجاه العكسى ..

وبدأ ينطلق سريعًا هاربًا من زائرينا ..

مشت السيارة ثلاث دقائق ، ثم توقفت بفرملة عاتية ..

لقد كان هناك جذع شجرة يسدّ الطريق .. الطريق العشوائى الذى رسمته الطبيعة ما بين (السافانا) والذى كنا ننوى المشى فيه ..

الغريب أن هذا الجذع كان على بعد مائة متر من الموضع الذى تركنا فيه السيارة المقلوبة ..

كيف لم نره ؟

نظر (أندرسن) إلى الوراء حيث الأفيال ، وإلى الأمام حيث جذع الشجرة الغليظ ، وقال فى توتر :

ـ « هل تريدون رأيى ؟ هذا الجذع قد سقط هنا منذ دقائق بينما كنا متجهين إلى الأفيال .. وهل تريدون رأيى ؟ لا يوجد لنا سبيل سوى دخول القرية من جديد .. »

قلت له وأنا أنظر إلى القرية المهجورة :

ـ « وهل تريدون رأيى ؟ يبدو أن كل شىء معدّ سلفًا كى ندخل القرية هذا كمين مقصود يا إخوانى ! »

* * *

٩ ـ الصّياد ..

ودخلنا القرية ..

لم نكن نملك ترف الاختيار أو التدبر ، ومن ورائنا سمعنا هدير القطيع إذ يمشى مبتعدًا .. بالطبع ما كانت الأفيال بحاجة إلى الطريق الوحيد الصالح لمرور السيارة ..

كانت القرية تمتد أمامنا كما هى بأكواخها .. بجثث البشر ، وجثث الحيوانات التى داهمتها .. وكانت أعداد من الطيور الجارحة هنا وهناك تمارس دورها الثقيل الذى لا تملك غيره ..

وقف (أندرسن) فى مساحة خالية ، وراح ـ متكئًا على الباب الجانبى ـ يرمق قافلة الأفيال تمرّ فى طريقها ..

أخيرًا هدأ الهدير ..

وبعد دقيقتين أخريين بدأ الغبار ينقشع ..

ـ « أظن أننا لن نتهور كثيرًا إذا ما رحلنا الآن .. »

وأدار المحرك ، ودار بالسيارة قاصدًا الموضع الذى كان فيه ، لكن صوتًا مألوفًا مدويًا جعل القرية تهتز ..

فهام ! بوم !

★ ★ ★

تبادلنا النظرات فى رعب .. من فعلها ومتى ؟

لكننا عرفنا الإجابة ، وتأكدنا أكثر حين نظرنا إلى إطار السيارة الخلفى .. كان مسطحًا وقد خرج الهواء منه ..

هتف (بودرجا) وهو يشير إلى اتجاه ما :

ـ « انظروا ! »

★ ★ ★

فى فاى فو فام !

★ ★ ★

شمس الأصيل تتوهج فى السماء ، تحرق عيوننا العاجزة عن الثبات .. لكننا نرى أمامها ظلاً مهيبًا ..

كان يقف فوق سقف أحد الأكواخ ، عارى الجذع ، يمسك بالبندقية فى يده اليمنى ملوّحًا بها ، وكما اعتاد دومًا طوّح بصدره إلى الأمام وذقنه إلى الوراء مقلدًا

(موسولينى) .. صلعته تلتمع فى الوهج ، وقد ساهمت الظلال التى غمرت جسده إذ وقف عكس الشمس ، والهالة الذهبية المحيطة به ، فى جعله يبدو أسطوريًا ..

الموت نفسه خرج من كتب الأساطير القديمة ، وجاء ها هنا ينتظرنا ..

لقد اختار أن تكون هذه القرية قبرنا ، ولن نفرّ مما أراد ..

أسوأ ما فى الأمر أنه لم يبدُ متحمسًا لمزيد من التصويب ..

فقط أراد أن نره لا أكثر ..

صحت وأنا أجرد سلاحى :

ـ « يا للوغد ! إن (ميشكا) ما زال حيًا ! أطلقوا الرصاص ! »

وانطلقت بندقيتان مع مسدس فى اتجاهه ، لكنه ظلّ ثابتًا لا يهتز ولا يتزحزح .. لم لا ؟ أليس هو الموت ذاته ؟

وفى النهاية اختفى أمام عيوننا التى أحرقها لهيب الشمس ..

* * *

صاح (أندرسن) وهو ينظر حوله :

ـ « الوغد ! إنه ما زال حيًا ! »

وصاح (بودرجا) :

ـ « كيف عرف أننا سنعود ؟ »

قلت وأنا أتأمل العجلة المثقوبة :

ـ «لم يكن بوسعه أن يعرف .. أعتقد أنه ظل متواريًا بالقرية ينتظر أول صيد آدمى يقوده حظه العاثر إليها .. ومن الواضح أنه هو من قطع الشجرة ، وربطها بحيث تسقط بعد مرور الصيد .. من يدرى ؟

ربما كان هياج الأفيال صدفة ، وربما كان هو من استطاع تحريكها بحيلة ما .. »

ثم رحت أبحث عن إطار احتياطى .. كان هناك واحد ، وكان بحالة جيدة لحسن الحظ ..

قلت وأنا أجلس على الأرض فى وضع مريح نسبيًا :

ـ « ماذا تنتظرون كى تعاونونى ؟ يجب أن ننتهى من هذا العمل سريعًا قبل أن يعود .. »

وثب الرجلان ، لكنى صحت فى (بودرجا) :

ـ «لحظة! ننتظر وراء (المترليوز) ولحم ظهرينا .. أعتقد بما أعرفه عن الروسى أنه سينتظر حتى نبدل الإطار ثم يثقب إطارًا آخر ! »

وأشرت باتجاه الشمس :

ـ «بما أنه صياد محترف ؛ فسيأتى من هنا دومًا .. لابد من حيلة الشمس فى العيون هذه .. لن يفوتها .. »

وأمسكت بمفتاح (الصليبة) على حين بدأ (أندرسن) فى تثبيت الرافعة .. هنا دوت طلقة أخرى حفرت الأرض جوارنا ، وبعثرت الغبار فى وجهينا ..

كان صوت الصغير ما زال يصمّ آذاننا ، حين قال (أندرسن) :

ـ «المسألة واضحة .. لن يترك لنا فرصة للرحيل .. »

ـ « إذن ندخل القرية بحثًا عنه .. »

ـ « ونترك له السيارة ؟ »

ثم إن (أندرسن) انتزع جربندية من السيارة ، وألقى فيها بمفتاح (الصليبة) والرافعة ، وكل سلاح ليس فى أيدينا .. ولـ (بودرجا) قال :

ـ «حاول انتزاع شريط الطلقات من (المترليوز) .. »

ثم فسّر لى الأمر :

ـ « هكذا تغدو السيارة بلا قيمـة .. لـن تفيده فـى الحركة ولا فى السلاح .. الاحتمال الأخير هو أن يتلف المزيد من العجلات ، أو يلقى ببعض السكر فى خـزان الوقود .. لكن هذا يجعلـه سجين القريـة مثلنـا .. لن يفعل هذا ما لم يكن قد جُنّ تمامًا .. »

ابتسمت فى مرارة ، وقلت .

ـ « هو بالفعل جن تمامًا .. لكـن أملنـا الوحيـد أن نجده قبل أن يمنعنا بحق من الرحيل .. »

ودون كلمـة أخـرى طوّح (أندرسـن) بالجربنديـة إلـى كتفـه ، وأمسك بندقيـة آليـة بيده اليمنـى ، ويـدأ يتقدمنا نحو صف الأكواخ ...

نظرت إلى (بودرجا) ، وأشرت له أن يتبعنا ، ثم توكأت على عكازى ، وبدأت أتواثب خلف (أندرسن) ..

كنت أعرف أن (ميشكا) لـن يطلـق النـار علينـا الآن ..

كان بوسعه أن يفعل هذا ثلاثين مرة منذ دخلنا القرية ..

إن ما أعدّه لنا أكثر إمتاعًا بالتأكيد ..

* * *

كانت رائحة العفن قوية الآن ، من كل الأجساد التى تحللت هنا ، ومهما بلغت براعة الطيور الجارحة فإن لأدائها حدًا ..

كان (أندرسن) أول المتقدمين ، ولعله أدرك بدوره أن (ميشكا) لن يطلق النار فورًا ..

لا أدرى متى ولا كيف حدث هذا ..

كان يمشى فوق مجموعة من أوراق الأشجار الجافة المبعثرة على الغبار ، وفجأة صرخ وتصاعدت سحابة ترابية ، ثم غاب عن عيوننا ..

وهرعت ـ على قدر ما استطعت ـ مع (بودرجا) لنرى ما حدث ..

ومن علٍ رأيناه فى قاع الحفرة .. حفرة عمقها ثلاثة أمتار غرست فى قاعها أربعة رماح مصوّبة نحو وجوهنا ، وأدركنا أن الحفرة كانت مغطاة بطبقة

رقيقة من جلد حيوان ، ثم نثر الغبار فوقها على سبيل الخداع .. إن أهل القرية لم يصنعوا هذا الفخ ..

كان حيًا لكنه يئن دون انقطاع ، وسألته مذعورًا :

ـ « هل أصبت ؟ »

ـ « لا .. ليس بأحد الرماح لو كنت تعنى هذا .. »

وأشار إلى ساقه :

ـ « هذه مكسورة .. هذا واضح .. »

يا للكارثة ! والعمل ؟

قال لى :

ـ « لم يتغير شىء .. أنا هنا فى أمان نسبىٍّ ، ومسلَّح .. واصلوا البحث عن الوغد ، لكن كونوا حذرين ! »

فكرت لثوان فى كلامه ..

يبدو قاسيًا أن نتركه هكذا ، لكنه حاليًا فى أمان نسبىٍّ كما قال ، ولن يكون ذا عون لنا لو أخرجناه ، ثم إن محاولة إخراجه ستجعلنا فى وضع واهٍ للغاية .. وضع شبيه باللحظات الرهيبة التى تمرّ بها الزرافة كى تشرب .. إنها تفتح أطرافها الأربعة ، وتلمس

الأرض ببطنها ، وتحنى عنقها الطويل ليلامس الماء .. عندها تغدو وجبة جاهزة سهلة لأى أسد حسَن الحظ ..

قلت له وأنا أتلفت حولى :

ـ « ليكن .. لكن كن حذرًا .. لاتبرحن عيناك السماء أبدًا .. »

ودرت حول الحفرة مع (بودرجا) ..

سألته ونحن نواصل التقدم ناظرين إلى الأرض طيلة الوقت :

ـ « هذا الفخ لم يصنعه أهالى القرية .. هه ؟ »

قال وهو يلوك أحد الجذور فى عصبية :

ـ « بالطبع لا يا دكتور .. فخ نمور وسط قرية حيث يمكن لأى طفل أن يسقط فيه ؟ »

ـ « إذن هو صديقنا الروسى ؟ »

ـ « طبعًا يا دكتور .. لقد قضى وقتًا لا بأس به هنا ، وأظن هذا ليس الفخ الوحيد الذى أعده .. المشكلة هى أنه يعرف كل أساليب الفخاخ الإفريقية .. وهو بارع حقًا .. »

وقطع عبارته فجأة ، وأشار إلى رقعة من التربة بدت لى ذات لون يختلف عمّا حوله ..

فى حذر مدّ (بودرجا) طرف البندقية التى يحملها ، وطرق بها على حدود الرقعة ، ثم ضغط أكثر ، فتهاوى السقف الكاذب وتصاعد الغبار .. لقد كان هذا شركًا آخر ..

قال (بودرجا) :

ــ « لا أدرى كم حفرة استطاع صنعها فى هذا الوقت .. لكن ربما كان العدد أكثر من اثنتين .. »

ورحنا نمشى بين الأكواخ الطينية ، نحاول ألا ندوس على الجثث ، ومن حين لآخر يحلق طائر جارح فى وجوهنا فيثير ذعرنا ..

كنا فى موقف غاية فى السوء ..

حماقة بالغة هى أن نتوغل فى هذا المكان المتشابك ..

حماقة بالغة هى أن نواجه صيادًا بارعًا مجنونًا يمكن أن يظهر من أى صوب وفى أية لحظة ..

وكانت أسطح الأكواخ تمثل مشكلة أخرى .. ماذا لو برز من فوق رءوسنا فى أية لحظة وأطلق طلقتين ؟

سأل (بودرجا) وهو يتحسس الأرض بفوهة بندقيته :

ـ « لماذا يفعل ذلك ؟ إن كان قد جن فليقتلنا وينتهى الأمر .. »

قلت وأنا أنظر لأعلى فى توتر :

ـ « لن تفهم كل ما أقول يا (بودرجا) .. لكن الرجل راغب فى حملة الصيد الأخيرة فى حياته .. لقد مارس كل أنواع الصيد ، لكنه لم يجرب قط الفريسة الأكثر ذكاء ومراوغة : الإنسان .. إن المكان كله شبيه بحفل مسرحى ختامى لحياته الملأى بالمخاطر ..

« لقد اعتقد دائمًا أن الموت حليفه ، وأن بينهما معاهدة صداقة قديمة .. هو اليوم يريد وضع هذه المعاهدة فى أقصى اختبار لها ..

« هو يعرف أن نهايته اقتربت .. يشعر بهذا بكل غريزة الأسد الجريح .. لكنه يكره أن يموت دون أن يخوض آخر وأغرب تجربة صيد فى حياته ، وما زال يراهن على أنه سيظل حيًا .. سيهزّ الموت رأسه له فى تهذيب وينصرف ، بمجرد أن يدرك أنه خصم قوى واسع الحيلة ..

« اليوم تنزع المدينة أقنعتها ، ويغدو الجنون اسم اللعبة ، وكل هذه المتعة نقدمها له دون مقابل ..

« لماذا ـ بالله عليك ـ يفسد كل هذا بأن يطلق علينا الرصاص الآن ؟ »

هزّ (بودرجا) رأسه فى عدم فهم ..

إن عقل الممرض الكاميرونى البسيط لا يفهم هذا المزاح ، ولا هذه الحلول الوسطى .. الأبيض أو الأسود .. القتل أو عدم القتل .. أما أن يضيع هؤلاء السادة الأثرياء رائقو البال وقتهم فى هذه الألعاب الميتافيزيقية ، فأمر لا يفهمه ، ولا يفهم دوره فيه ..

ثم توقف عن أفكاره ، وأشار لى ..

نظرت إلى حيث أشار فوجدت جثة مستندة إلى باب كوخ .. جثة مألوفة الملامح إلى حدّ ما ..

كان هذا هو سائقنا البائس .. أول من مات حين انطلقت الرصاصة من أسفل لتخرق السقف ..

وفى صدره وجدت ذلك الثقب القبيح الدامى ..

لقد أنزله الروسى من أعلى ، وأرقده هنا ..

قلت لـ (بودرجا) :

ـ « تعال نرحه بالداخل .. إن مكانه هنا يجعله فريسة سهلة للضباع .. »

لكن (بودرجا) لم يبدُ متحمسًا .. كان ينظر لأعلى مفكرًا ..

ثم أشار إلى حبل ليفى يتسلق الجدار جوار رءوسنا نحو السقف .. طرف الحبل يختفى تحت الجثة ..

قال (بودرجا) وهو يجنب ذراعى :

ـ «قديمة .. هذه من حيل (الباميليك) الشهيرة .. ارفع الجثة ولسوف ينزلق الحبل إلى أعلى ويسقط الشىء الموجود على سطح الكوخ فوق رءوسنا ! »

ـ « وما هو ذلك الشىء ؟ »

ـ « بالطبع عش من الدبابير السامة القاتلة هكذا يفعلون ! لماذا تعتقد أنه غير الأسلوب ؟ »

★ ★ ★

١٠ ـ والفريســة ..

هكذا ـ ببساطـة ـ تحـوّل الأمـر إلى صراع بـين عقلين .. عقل (ميشكا) الذى يعرف كل شـىء عن نصب الفخـاخ ، وعقـل (بودرجـا) الـذى يعـرف كـل شىء عن تفاديها ..

ودورى أنا ؟ لا دور لى ..

كل ما علىّ هو أن ألتصق بـ (بودرجا) ولا أفارقه لحظة ، وإلا فالويل لى ..

* * *

كان هناك أسد جريح يرقد على الأرض ..

فقط رفع نصفه الأمامى لأعلى ، وراح يصدر زئيرًا داميًا يمزق نياط القلوب .. أما نصفه الخلفـى فلم تعد له علاقة به ..

الوحش المهيب عـاجز تمامًـا ، والسـبب طلقـات مزقت ظهره ..

هل فعلها (ميشكا) أم رجال الرائد (جيتادب) ؟ لا أدرى .. لكنى على كل حال أغمضت عينى وضغطت على أسنانى وأعصابى ، وأفرغت بضع طلقات فى رأسه ..

حين فتحت عينى كان جثة هامدة مستريحة ، وكان (بودرجا) يقول لى لائمًا :

ـ « لماذا فعلت ؟ هذه الطلقات تحدّد مكاننا بدقة .. »

ـ « كان هذا أقوى منى .. يجب على من يقتل أن يحسن القتلة .. »

لم يردّ ، ومشينا صامتين نمشط المكان ..

المشكلة هى أن (ميشكا) لم ينتق خصومه بدقة .. كان عليه اختيار رجلى عمليات خاصة ، يتسللان كالأفاعى ، ويطلقان الرصاص كالبراكين ..

لكننا كنا خصمين مثيرين للشفقة بحق .. كتلتين من انعدام الكفاءة ونقص الخبرة ..

كلا .. ليس فى قتلنا أى نوع من البطولة ..

ليس فيه أى نوع من المجد ..

* * *



لكنى على كل حال أغمضت عينى وضغطت على أسنانى وأعصابى ، وأفرغت بضع طلقات فى رأسه ..

من جديد صاح (بودرجا) :

- « انتبه ! »

لكنه كان قد تأخر قليلاً ، فلم أدر إلا بـه يلقـى بـى على الأرض ويتمرغ جانبًا ، وسمعت جلبة عالية كـأن حبلاً ينهار فوق رأسينا ، وحين نظـرت لأعلـى فهمـت ما هناك ..

جذع شجرة غليظ مقطوع يتأرجح من حبلين ليفيين معلقين من شجرتين .. كان هناك جهاز معقد من فروع الأشجار يشبه الزناد على الأرض ، وتكفى لمسة واحدة له كى تبدأ تقنية متطورة مثل تقنيات (توم وجيرى) .. غصن ينزاح .. صخرة تسقط .. جذع الشجرة الموضوع فى زاوية حرجة يسقط من موضعه ليطير رأس الأحمق الذى داس على الزناد ..

قلت وأنا بعد على الأرض :

- « إنه عبقرى ذلك الوغد ! »

قال (بودرجا) وهو ينهض :

- «كلا .. هو لم يخترع هذه الأشياء .. إنه بارع فقط فى استخدامها .. »

ـ « وكم تظن عدد الحيل التى نثرها فى هذه القرية ؟ »

ـ « ما يمكنه وضعه فى أثنتى عشرة ساعة .. منذ تركنا القرية وحتى عدنا إليها .. »

ونهضت على ساقين ترتجفان ...

ما زال (بودرجا) بارعًا قوى الملاحظة ..

لكن ماذا لو فقدته فى حادث أليم ؟

* * *

والمشكلة الأدهى كانت أن الشمس بدأت تنحدر غربًا ، كأنما ملّت هذه الألعاب السمجة .. تثاءبت وقررت أن تنام ..

على كل حال سيجعلنا الظلام متعادلين فى الغالب ، لأن الروسى مهما كانت براعته لن يستطيع الرؤية فى الظلام ، ولم تكن نظارات الأشعة تحت الحمراء ضمن عتادنا ..

لعل الليل يجعل موقفنا أفضل قليلاً ..

الحقيقة هى أننى لم أتخلص حتى الآن من الشعور

المرهق بأنه يرى ويتابع كل شىء ، ويسخر منا فى الآن ذاته ..

ووجدنا الحفرة الثالثة ، لكنها لم تكن مغطاة ..

قربت رأسى منها ، فتعالى زئير مروّع ..

دنوت أكثر فاستطعت أن أرى ثلاثة ضباع بالداخل ـ فى القاع ـ تتواثب محاولة الوصول إلىّ ، والزبد يتطاير من أشداقها ..

يا لبشاعتها ! وجوه كوجوه الشياطين فى الظلام لاتكف عن التكشير عن الأنياب .. ورائحة أنفاسها الكريهة تزكم الأنوف ..

واضح أن هذه الوحوش لم تتوقع وجود شرك كهذا فى أثناء جولتها الاستكشافية بين الجثث ..

كدت أنهى عذابها ببضع طلقات ، ثم خشيت أن أكرر ذات الخطأ الذى ارتكبته مع الأسد ..

تراجعت بظهرى إلى الوراء ، وواصلت المشى مع (بودنزجا) ..

وفجأة صاح (بودرجا) :

ـ « هذا هو ! »

وأطلق دفعة من بندقيته الآلية باتجاه الشمس الغاربة ، فنظرت إلى حيث أطلق فلم أر شيئًا ..

قال مفسرًا :

ـ « لقد كان هناك .. يعبر ما بين كوخين .. ترى هل أصبته ؟ »

ـ « تعال نر .. »

ـ « ولكن لنمش بحذر .. ربما كان هذا كمينًا آخر .. »

ومشينا .. واحد منا يرمق الأرض ، بينما الآخر يرمق السماء فى توتر .. كانت هناك قدر طعام كبيرة مقلوبة ، ونار هامدة ، وامرأة لم تترك الضباع منها الكثير ..

وهناك ما بين الكوخين وجدنا قطرات دمٍ طازج على الغبار ..

لقد أصابه (بودرجا) لكنه لم يقتله ..

ربّت بيدى على كتفه مهنئًا :

ـ « هى خطوة لا بأس بها .. »

قال دون زهو :

ـ « لا أراها كذلك .. إنه الآن أكثر خطرًا وشراسة .. هذا هو كل شيء .. »

ـ « لكنه سيرتكب أخطاء .. لن يظل معصومًا كما يبدو لنا .. إن صفاء عقله ينزف مع قطرات الدم هذه .. »

ومشينا دون أن تفارق عيوننا التربة ..

إن قطرات الدمّ تقودنا نحوه دون ريب ..

وفجأة توقفت القطرات ..

غريزيًا درت حول نفسي ، وصوبت البندقية إلى أعلى متوقعًا أن يثب علينا فى أية لحظة ، لكنه لم يكن فى مجال بصرى ..

وقال (بودرجا) وهو يتأمل بدقة :

ـ « لقد لاحظ الدمّ ، وعاد أدراجه محاولاً أن يترك نفس الأثر .. قطرات دمه عند العودة تسقط جوار قطرات دمه عند الذهاب .. أعتقد أننا مررنا بموضعه دون أن نلاحظ .. »

وهكذا درنا حول أنفسنا ، وعدنا نتابع آثار الدماء بطريقة عكسية .. مشينا نحو عشرين مترًا حين وجدنا ..

وجدنا جثة الفأر الذبيح ملقاة هناك بعدما استنفدت دماءها ..

لم يكن هذا دمّ الصياد إذن .. !

كانت لعبة قاسية أراد بها أن يجذبنا إلى هناك ..

إلى هذا الموضع بالذات ..

ولماذا ؟

★ ★ ★

فى اللحظة التالية هوت كتلة هائلة الحجم فوقنا ..

وثب كل من إلى جانب ، على حين تناثرت الصخور فى كل اتجاه .. وأدركت أنها صخرة تم دفعها من أعلى .. إلى حيث كان الرجل يعرف جيدًا أننا قادمان ..

لم يصب أحدنا ، لكننى شعرت بأننا نقاتل وحشًا أسطوريًا لا يمكن القضاء عليه ..

رحنا نركض بين الأكواخ دون نظام ، ونحن نرمق الأرض والسماء فى قلق .. إن الركض بساق مضمدة لمشهد يثير الشفقة ..

كان صوت الخطوات الحقود المصرّة على الإيذاء من خلفنا ، وأدركت أن مباراة الصيد توشك على نهايتها ..

هذه المرة سيصوّب .. وسيصوّب ببراعة ..

أخيرًا وجدنا نفسينا واقفين قرب الحفرة إياها .. الحفرة التى سقطت فيها الضباع ..

كان الليل قد بدأ يلوّن القرية بفرشاته الزرقاء الحزينة ، وخطر لى أن أول لقاء سيكون آخر لقاء ..

كل شىء يوحى بالنهاية .. مالم ..

همست لـ (بودرجا) :

ـ « فلنتوار بين الأعشاب الآن ! »

ـ « ولكن .. »

ـ « افعل كما أقول .. »

ورفعت عقيرتى وأطلقت صرخة رعب ..

صرخة إنسان يسقط فى فخّ ، ويحاول أن ينتشل نفسه من براثن الكابوس ..

ثم دفنت رأسى بين الأعشاب ، وانتظرت ..

وفى هذه المرة حدث ما توقعت ..

من الظلام الذى بدأ يتوغل ؛ برز لنا الجسد العملاق للرفيق (ماكسيم إيزاريوفتش منكوف) ..

كان قد استكمل تحوله إلى وحش آخر .. نوع من الضوارى لم يقم (لينيوس) بتصنيفه بعد ..

الرأس الأصلع يلتمع فى الظلام ، والعضلات المبللة بالعرق ، وفى يده بندقيته ، وفى اليد الأخرى خنجره ..

كان يتقدم فى تؤدة كمن لا يرى ضرورة للعجلة ..

يتقدم ليرى ضحيتيه اللتين سقطتا فى الشرك ..

ظهره لنا .. يقف على حافة الحفرة وينظر لأسفل .. يدقق النظر .. أستطيع أن أرى وجوه الضباع الكئيبة إذ تحاول الوصول له ، لكنها لا تقدر ..

لم أترك له فرصة الالتفات للوراء فالحذر ..

حتى النمور يمكن خداعها أحيانًا ..

ضغطت على زناد بندقيتى الآلية ، وكذا فعل (بودرجا) فانطلق سيل من الطلقات باتجاه الرجل ..

لن يموت ..

مستحيل أن يفعل ..

لقد انعقدت بينه وبين الموت معاهدة سلام أبدية ..

سيستدير ويمشى نحونا ، ليهشم عنقينا بيده العارية ..

لكنه خيّب أملى أو خيّب سوء ظنى ..

ترنُح ورفع ذراعيه لأعلى ..

ثم هوى كالصخرة فى الحفرة ..

ودوّت أصوات مخيفة من الداخل ، لأن الضباع الرقطاء لا تمزح ، ولا تحبّ من يسقط عليها من أعلى حتى لو كان صياداً روسيًا ..

أصوات مخيفة سرعان ما استحالت قهقهة سادية مروّعة ..

★ ★ ★

قلت لـ (بودرجا) وأنا أنهض ، وكل عضلة فى جسدى ترتجف :

ـ « هل تعرف كيف تقود سيارة ؟ »

ابتسم فى مرارة ، وساعدنى على النهوض :

ـ « سأحاول يادكتور .. أعدك أننى سأحاول .. »

* * *

الخـاتمة

لم تكن رحلة العودة عسيرة ..

كان كل واحد منا يشكو من طرفيه السفليين ، لكـن (بودرجا) استطاع ـ بمعجزة ما ـ أن يقود السيارة مسترشدًا بتعليمـات (أندرسـن) ، وأشـهد أن قيادتــه كانت أفضل من قيادة (أندرسن) نفسه ..

لكن الملاحظة الصحيحة التـى أبداها وهو يقود ، هى أن الحيوانات صارت نادرة ، وبدأت تستعيد طبائعها الخجول من جديد ..

أذكر أننا قابلنا أسرة من الأسود ، وتوقعنا مطاردة عنيفة ، لكن الحيوانات ظلت حيث هى تتثاءب ، مفضلة الرقـاد فـى شمس النهـار الوليد علـى الركض خلـف سيارة مسلحة ..

وفى مـرة قابلنـا فيلين وقفا يرمقاننـا فى مـلل ، ثم واصلا رش الغبار على جسديهما ..

يبدو أن الجنون قد بدأ يحمل عصاه ويرحل ..

وقال لى (أندرسن) وأنا أثبت له الجبيرة :

ـ «نحن لن نعرف ما حدث إلا لو عدنا .. لكن أيًا كان فمن الواضح أنه انتهى .. »

ونظر إلى السهول الممتدة أمامه وبأسى قال :

ـ « تحتاج هذه المناطق إلى فترة طويلة نسبيًا حتى تكفكف دموعها ، وتلعق جراحها .. »

* * *

حين عدنا إلى (سافارى) شعرنا كأننا ثلاثة من (الزومبى) يدخلون قريتهم ، فيلقاهم الناس بمزيج من ذهول ورعب ..

وبعد العناية بنا ، وتبادل الأخبار ، قال (بارتلييه) :

ـ « إن الأنباء قد عادت ، ومن الواضح أن الكارثة تنقشع من البلاد كلها .. »

ـ « وما سببها ؟ »

ـ « لقد حدثت ثورة بسيطة ونشاط بركانى فى (ماونت كاميرون) ، لكن الأمر لم يصل لحدّ الانفجار ..

« سيكون علينا معرفة سبب النشاط الهياجى الذى

اعترى الوحوش والبشر ، وهل هو بسبب التسمم بـ (ثانى أوكسيد الكبريت) أم بسبب (اضطراب التوتُر الحادّ) .. لكن تاريخ البراكين لايخلو من قصص مماثلة :

« لقد هدأ البركان من جديد ، ويتوقّع خبراء البراكين أن القصة قد انتهت عند هذا الحدّ .. »

« إلا أن ما حدث يفتح بابًا جديدًا مثيرًا للدراسة ، وأتوقّع أن (ياوندى) تعجّ الآن بخبراء البيئة وخبراء علم الأحياء .. »

سأله (أندرسن) فى ضيق :

ـ « معنى هذا أن رحلتنا إلى (أداماوا) كانت بلاداع ؟ »

ـ « للأسف يابنى هذا صحيح .. لكننا لانعرف الغيب ، وما كان بوسعنا أن نجد سبيلاً آخر للخلاص .. كيف كنا نتوقع أن الكارثة ستنتهى بعد قليل ؟ »

فى فخر قال (آرثر شيلبى) :

ـ « قلت لكم إن (الإنتروبى) هو طبيعة الكون .. كل شىء مصيره إلى الخمود والزوال والانتهاء .. لو تذكرتم كلماتى لوفرتم على أنفسكم ساعات أشد سوادًا من الجانب الآخر للقمر .. »

ومضغ سيجاره فى استمتاع :

ـ « (الإنتروبى) .. هذا هو ناموس الوجود .. »

★ ★ ★

لم يكن (ماونت كاميرون) بالاستقرار الذى وصفوه ..

وقد لاحظ خبراء البراكين نشاطًا (سيزميًا) لا يبعث الاطمئنان فى النفوس .. هذا بركان نشط ، وصمته ينذر بالويل ..

متى ينفجر ؟ ما تأثير الانفجار التالى ؟

أسئلة كنت أتمنى الإجابة عنها ، لكنها لا تهمنا هنا فى (سفارى) .

د . علاء عبد العظيم

أنجاوانديرى

★ ★ ★

رقم الإيداع : ٢٤٨٧



سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكي يظل حيا ولكي يظل طبيبا

أرض الجنون

هكذا كان يقف، تلتمع صلعته في ضوء الشمس، يلوح بالبندقية في يده اليمنى .. وكما اعتاد دومًا طوّح بذقنه للوراء وصدره للأمام مقلدًا (موسوليني) .. بدا لنا في وقفته عكس الشمس أسطوريًا .. الموت نفسه وقد غادر كتب الأساطير القديمة ووقف ها هنا ينتظرنا . ولن نفرّ منه مهما حاولنا .



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم
تسي تسي ..!

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة